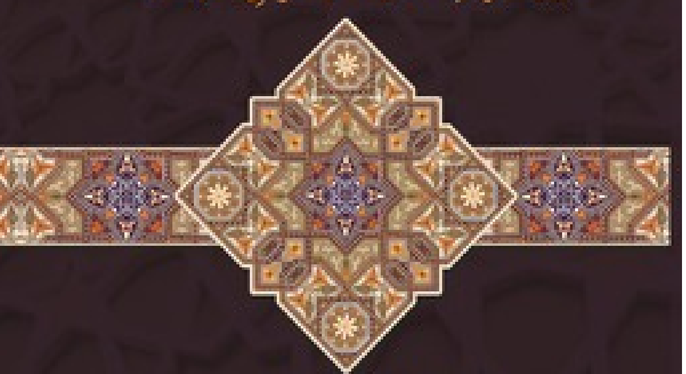



## بين القواعد الضابطة والمزالق المهلكة



د. رمضان خميس الغريب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعتي الأزهر وقطر

دار البشير

# فهمُ القرآن  بين
# القواعدِ الضّابطة والمَزالقِ المُهلكة




**اسم الكتاب:** فهم القرآن بين القواعد الضابطة والمزالق المهلكة

**التأليف:** أ.د. رمضان خميس زكي الغريب

**موضوع الكتاب:** دراسة إسلامية

**عدد الصفحات:** 136 صفحة

**عدد الملازم:** 8.5 ملازم

**مقاس الكتاب:** 14x20

**عدد الطبعات:** الطبعة الأولى

**رقم الإيداع:** 2018 / 9526

---






elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



# فهمُ القرآن

## بين

## القواعدِ الضّابطة

## والمَزالقِ المُهلكة

دكتور

**رمضان خميس زكي الغريب**

**أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر**

**وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية**

**جامعة قطر**



**بسم الله الرحمن الرحيم**

# تقديم

﴿ الْحَمْـدُ للـهِ الَّـذِي أَنـزَلَ عَلَـى عَبْـدِهِ الْكِتَـابَ وَلَـمْ يَجْعَـل لَّـهُ عِوَجَـا ﴾[1]، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الذي جعله الله بيانًا علميًّا وعمليًّا لكتاب الكريم، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وبعد..

فإذا كانت الأمور بمقاصدها؛ فإنّ رسالة القرآن تبدو واضحة للعيان تعبّر عنها آياته الكريمات، ومِن ذلك قوله تعالى:

(1) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[3].

(2) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(1) الكهف آية 1.

(2) النحل: 44.

(3) الإسراء: 9.

(4) البقرة:151.

(3) ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1].

(4) ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾[2].

القرآن إذًا كتاب هداية، يبدأ مشوارها بالتلاوة الصحيحة والفهم الدقيق والتزكية الإيمانية لنكون ربانيّين ولنحكم العالم بما أنزل الله، فالغاية من إنزال القرآن على قلب النبيﷺ ثمّ تكليف الإنس والجان بالعمل به أن يكون هداية لا ثقافة فقط، وليس هداية إلى الطريق القويم، وإنما للتي هي أقوم، وليس فقط للعمل الحسن، وإنّما كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[3]، وليس لنقول كلامًا حسنًا فقط؛ وإنما كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[4]، وليس لأنْ تكون أمّة الإسلام أمّة من الأمم؛ وإنما لتكون الأمّة الأقوى عقيدة وأخلاقًا، سلوكًا وحضارة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ

(1) آل عمران:79.

(2) النساء:105.

(3) الملك:2.

(4) الإسراء: 53.

إِيمَانَكُـمْ إِنَّ اللـــهَ بِالنَّـاسِ لَـرَؤُوفٌ رَّحِيـمٌ ﴾[1]، ولم ينـزل القـرآن عـلى قلـب سـيد الأنـام ليكـون ديـنُ الإسـلام دينًـا مـن الأديـان، وإنمـا ليكـون الأظهـر والأقـوى في العـالم كلّـه؛ كـما قـال تعـالى: ﴿هُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِيـنِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَـى الدِّيـنِ كُلِّـهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُشْـرِكُونَ﴾[2]، وقـد تكـرّر هـذا المعنـى ثـلاث مـرات في القـرآن الكريـم في سـور: التوبـة، والفتـح، والصـف؛ وهـذا كلّـه مرهـون بـأن نفهـم القـرآن لفظًـا ومعنـى، نـورًا وهدايـة، ثقافـة وحضـارة، عـزة وقـوة، حُكـمًا وحكمـة ومقصـدًا، عقيـدة وأخلاقًـا وتشريعًـا. ومِـن هنـا تـأتي أهميـة هـذا البحـث القيّـم الـذي يرجـع بنـا إلى مرحلـة مـا قبـل قـراءة القـرآن؛ فـإنّ مَـن يصـلي أو يطـوف بالبيـت بغـير وضـوء فصلاتـه وحجُّـه باطـلان، وإذا صامـتِ المـرأة الحائـض فصومهـا خـداج، فصـارت الطهـارة شرطًـا لقبـول هـذه الأركان، وأحسـبُ أن فهـمَ القـرآن شرط لإدراك رسـالته، فنحـن أمـام نوعـين مـن النـاس في فهـم القـرآن، هـما:

الفريق الأول: فريقٌ يفهم القرآن سواء آمن به أم لم يؤمن:

ومِـن هـؤلاء عـربٌ ومشركـو قريـش الذيـن قـال لهـم النبـي ﷺ: «قولـوا كلمـة تديـن لكـم بهـا العـرب وتملكـون بهـا رقـابَ العجـم»، فقالـوا: بـل عـشر كلـمات نقولهـا: قـال: « قولـوا لا إلـه اللـه تفلحـوا، فقالـوا: أمّـا هـذه فـلا نقولهـا»[3].

(1) البقرة: 143.

(2) التوبة: 33.

(3) بلفظ قريب منه : المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ط دار الكتب العلمية  بيروت ، ط أولى، ت مصطفى عبد القادر عطا: 1/61.

ونحـن الآن أمـام «دراويـش» يقولـون لا إلـه إلا اللـه في اليـوم مئـات أو آلاف المـرات، وسـلوكُهم أبعـد مـا يكـون عـمّا تـردّده أفواههـم، أمّـا عـرب الجاهليـة فقـد كانـوا يدركـون معنـى كلمـة التوحيـد، فيتخافتـون ويأتـون في الليـل ليسـتمعوا إلى القـرآن مـن النبـيﷺ وأبي بكـر وغـيره، وقـد أجـاد الوليـد بـن عتبـة- رغـم كفـره- بوصـف القـرآن: «إنّ لـه لحـلاوة، وإنّ عليـه لطـلاوة... ولا يُعـلى عليـه»[1].

ولمّـا قـرأ عمـر بـن الخطـاب فواتـحَ سـورة طـه تحـوّل مـن رجـل يريـد قتـل محمـد إلى رجـل ينقـل الجماعـة المُسـتضعفة المسـتترة في دار الأرقـم إلى جماعـةٍ معلنـة تطـوف شـوارع مكـة وتغـشى المسـجد الحـرام، عندمـا قـال: «ألسـنا عـلى الحـق... فلـمَ نعـط الدنيّـة في ديننـا»[2] ، ونحـن عندنـا حفّـاظ يتـوارى المسـلم خجـلاً مـن سـلوكهم.

الفريق الثاني: يؤمن بالقرآن ولا يفهمه:

ومِـن هـؤلاء عـشرات الملايـين وليـس الآلاف الذيـن يحفظـون القـرآن دون فهمـه، ومئـات الملايـين الذيـن يقرأونـه ويسـتمعون إليـه ولا يفهمونـه، وانتـشرت مراكـز تحفيـظ القـرآن في كلّ مـكان مـن العـالم الإسـلامي أو الغـربي، وإننـي أكتـب

---

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات بن الأثير، ط: المكتبة العلمية، بيروت 1399هـ 1979م، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، 3/302.

(2) المعجم الكبير ، للطبراني، ط: مكتبة العلوم والحكم، ط الثانية 1404هـ 1983م، 20/9.

هـذا التقديـم مـن فرانكفـورت، وفي مسـجد واحـد وهـو طـارق بـن زيـاد 240 طفلاً وشابًّا ورجلاً في مكتب تحفيظ القرآن، فلو ألحق الحفظُ بالفهم، والفهم بالتزكية، والتزكية بالدعوة؛ لتغيّر العالم كله، لكننا نصبُّ جلّ اهتمامنا على حفظ النصوص دون فهمها، وترديد المتون دون إدراكها، حتى إن إمامًا أعجميًّا يسمّونه الحافظ في أحد المساجد في ولاية تكساس-أمريكا، وقف يدعو بالناس في القنوت ليلةَ القدر فأورد كلّ ما جاء في القرآن من أدعية، ومِن جُملة ما دعا به: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] وقد أمَّن المسلمون وراءه!!.

بل وقف إمامٌ عربي في إحدى دولنا الإسلامية يقرأ عليهم آية النحل: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللـهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[2] فقرأها «مِن تحتهم»!! فصحّح له أحدُ المصلين في الصلاة فأعاد الخطأ نفسه، فقال له بعد الصلاة: يا مولانا كيف يخرّ السقف من تحتهم؟! الواحد لو مش حافظ يفهم!!.

ونحن هنا نتّفق مع الباحث على أهمية الحفظ بشرط أن يكون مقرونًا بالفهم والعمل وتعليم القرآن، ومِن هنا كان من اللازم والضروري أن نعدَّ

(1) آل عمران: 35.

(2) النحل : 26.

المسلمين لمرحلة ما قبل الدخول على القرآن؛ حيث يحتاج هؤلاء إلى العُدة التي تمكنهم من فهم القرآن، وفي هذا السياق يأتي كتاب الأخ الكريم والباحث المدقق الأستاذ الدكتور: رمضان خميس زكي الغريب بعنوان: «فهم القرآن بين القواعد الضابطة والمزالق المهلكة».

وقد تمتّع هذا البحث بمزايا عديدة، أهمها ما يلي:

1 - التقسيم المنهجي الدقيق المترابط، حيث جعل المبحث الأول بعنوان: «الفهم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية»، وفي المبحث الثاني وضع قواعد الفهم، وقد أورد فيه إحدى عشرة قاعدة ضرورية لفهم القرآن، ثمّ عاد من التنظير والتحقيق إلى الواقع الأليم فكان مبحثه الثالث: «عقبات في طريق الفهم»، ولم يدعنا حيارى: ماذا نفعل في هذه المعضلة؟ بل وضع لنا حلولًا عملية في المبحث الرابع تحت عنوان: «معينات الفهم» فجمع بين التنظير والنزول إلى الواقع ووضع الحلول المناسبة.

2- الأمانة والدقّة في عـزْو النصوص إلى أصحابها وتوثيق المعلومات وتخريج النصوص من مصادرها وأصولها.

3 - جاءت عبارة المؤلف سَلسلة سهلة رقيقة، تبدو فيها روح التشبع بالقرآن، وهذه واحدةٌ من عباراته ومقاطعه لعلَّها تدلّ على تأثره وتضلعه بنظم

وأسلوب القرآن حيث يقول: «ذلك أن الله- تعالى- خلق الإنسان، ووضع له نظامًا يضمن له العزّ في الدنيا، والسعادة في الآخرة، هذا النظام هو القرآن الكريم، بأوامره، ونواهيه، وإرشاداته، وتوجيهاته، فإن استطاع الإنسان أن يفهم القرآن الفهم الصحيحَ؛ عزّ في الدنيا، وأعمرها، وارتفق خيرها، وبنى حضارتها، وصار- بحقّ- خليفة الله في أرضه، وأهلاً لهذا التكليف، ومحلاًّ لهذا التشريف، الذي فضّله الله- تعالى- به على سائر الخلق، وإنْ أخفق– ولا أخفق– في تفهّم هذا النظام، الذي هو موضوع لصلاحه وإصلاحه، كان كمَن انطفأ النور أمام ناظريه، فأصبح في دياجير الظلام، وإن كان ذا بصر شديد، أو رأي رشيد، أو عقل سديد، فلن يصل إلى مبتغاه، ولن يهتدي لهداه، وكان كمن قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فنودي لا عاصم اليوم من أمر الله، وأصبح في عداد المغرقين؛ لأن الضوء الكاشف خلاه، والهادي البصير ودّعه وقلاه، وصار مثله ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ {17/2} صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾.

وإذا كان لي من إضافة إلى الوسائل العملية التي تعين على فهم القرآن في كتاب الشيخ رمضان فهي ضرورة تعلّم اللغة العربية؛ فإنها هي الوعاء الذي به نزل القرآن ويتلى القرآن ويفهم القرآن، ولذا كان من شروط فهم نصوص

القـرآن أن تعـرف اللغـة العربيـة وقواعدهـا وآدابهـا، وتمتلـئ كتـب أصـول الفقـه بأبـواب كثـيرة عـن قواعـد الاسـتنباط اللغويـة مـمّا نحتـاج إليـه اليـوم قبـل أي وقـت مـضى لنفهـم النصـوص كـما أنزلهـا اللـه تعـالى، ولا يكـون الجهـل باللغـة حاجبًـا دون معـاني القـرآن السـامية ومقاصـده العاليـة، وتعلـم اللغـة العربيـة لعمـوم المسـلمين واجـب لفهـم الرسـالة العامـة للقـرآن، وهـي أوجـب بمسـتوى أوسـع وأعمـق وأدق للعلـماء المجتهديـن.

أدعـو اللـه- عـزّ وجـل- لفضيلـة الشـيخ الدكتـور رمضـان خميـس أن يكتـب لـه القبـول الحَسـن عنـد اللـه، والتغيـير للأحسـن عنـد النـاس ليعـودوا إلى القـرآن بالعقـل فهـمًا وتدبـرًا، وبالقلـب إحساسًـا وتأثـرًا، وبالنفـس إصلاحًـا وتغـيرًا، عـسى أن نسـعد نحـن ونسـعد العـالم حولنـا بالقـرآن واتبـاع هـدي سـيد الأنـام ﷺ.

**والله ولي التوفيق..**

**أ.د. صلاح الدين سلطان**

**فرانكفورت**

# المقدمة

## بِسْمِ اللـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد ﷺ وآله وصحبه ومَن والاه، اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك يا حنّان يا منّان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام؛ أن تجعل أقوالنا، وأفعالنا، وحركاتنا، وسكناتنا فيك لك خالصة؛ إنك على كلّ شيء قدير، أمّا بعد:

1

فإنّ كتابًا من الكتب السماوية أو الأرضية لم يلقَ من العناية والاهتمام مثلما لقي القرآن الكريم؛ فقد تفرّد هذا الكتاب الكريم بعناية أهله به عنايةً فاقت الحصر، وزادت عن حدّ الكفاية والحاجة بمراحل طوال، وآمادٍ بعاد، فقد عدّوا سوره وآياته، وكلماته وحروفه، وسجداته، وتواتر ذلك جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل، من لدُن نزوله على قلب المصطفى ﷺ قبل ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان إلى الآن، إلى أن تقوم الساعة.

وما ذلك إلّا جزءٌ من أجزاء وعدِ الله تعالى بحفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، حتى بلغ حدّ العناية أنْ يقول الجيل الرائد: «سلوني عن كتاب الله، فوالله ما تسألوني عن آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ فيمَن نزلت، ومتى نزلت، وأين نزلت»[1].

2

ولم يكنْ هذا الجهد مِن الجيل الأول في حفظ القرآن الكريم والحفاظ عليه إيعاب ذاكرة مجردة، أو استظهار قلبٍ غافل، بل تبع ذلك الحفظ الذي لا ينخرم، والاستظهار الذي لا ينصرمُ معرفة بمضامينه، وقضاياه، وأمثاله، وقصصه، وأوامره، ونواهيه، وحكمه، وإشاراته، وتلتهمُ الأجيال المتعاقبة تكتب في كلّ صغيرة وكبيرة تتعلّق بالقرآن الكريم، في مكيّه ومدنيّه، في إحكامه وتشابهه، في نزوله، وحججه، وفي قصصه، وتصويره، وإعجازه، وبيانه، يستوقفون أنفسهم عند نتائجه، بعد تعرّفهم على مقدّماته، ويقفون على قضائه، بعد معرفتهم لأدلّته وبيانه. أخرج مسلمٌ في صحيحه أنه لمّا نزل قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82] قالوا: يا رسول الله، وأيّنا لم يظلم نفسه؟ قال-ﷺ-: «إنّ الظلم هنا ليس الذي تعْنون، إنّما هو الوارد في قول العبد الصالح:

(1) المقولة لعلي بن أبي طالب، انظر: تفسير الصنعاني، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، 3/ 241، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ط أولى،1410هـ ، ت/ د. مصطفى مسلم، والإتقان: 2/ 493.

يـا بنـيّ لا تـشرك باللـه إنّ الـشرك لظلـم عظيـم»[1]، فانظـرْ كيـف اسـتوقفهم المعنـى، ولم يتجـاوزوه حتـى يَعـوه، فيطبقـوه، وكـم مـرّت بنـا هـذه الآيـة وأمثالهـا ولم يتفكّـر فيهـا المـرء كـما ينبغـي.

3

مِـن هنـا أعطاهـم القـرآن الكريـم عـزًّا حقيقيًّـا، وسـؤددًا صادقًـا، فقـادوا العبـاد، وفتحـوا البـلاد بأمـرِ اللـه ربّ العالمـين، حتـى قـال الفـاروق رضـي اللـــه عنـه وأرضـاه: «لقـد كنّـا أذلـة فأعزّنـا اللـه بالإسـلام، فمهْـما ابتغينـا العـزة في غـيره أذلنـا اللـه»[2]، وصـدقَ ربعـيّ بـن عامـر بحالـه ومقالـه هـذا الأمـر، فعلّـم «رسـتم» ذلـك بقولـه: «إنّ اللـه ابتعثنـا لنخـرج النـاس مـن عبـادة العبـاد إلى عبـادة اللـه ربّ العبـاد، ومـن ضيـق الدنيـا إلى سـعة الدنيـا والآخـرة، ومـن جـور الأديـان إلى عـدل الإسـلام»[3]، ومـا ذلـك إلّا لانطلاقهـم مـن هـذا المصـدر الأصيـل، الـذي هـو أول مصـادر التشريـع الإسـلامي الحنيـف، ولم يكـن أصحـاب النبـي ﷺ يقْـصرون هـذا المصـدر عـلى جانـب التشريـع، وناحيـة الفقـه بمعنـاه المحـدود الـذي انْحـصرت فيـه الأمّـة بعـد ذلـك أجيـالًا متعاقبـة، وأحقابًـا متطاولـة، بـل كان الفهْـم القـرآني لديهـم يغـزو كلّ

(1) البخاري ج3 ص 1226، برقم 3181، ومسلم ج1 ص 114، برقم 197.

(2) المستدرك: ج1 ص 130، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما بأيوب بن عائذ الطائي وسائر رواته، ولم يخرجاه.

(3) انظر تاريخ الأمم والملوك، 2/ 401، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى 14-7 هـ .

جنبات الدّين، وأركانِ الحياة، حتى قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه: «لو ضاع مني عقالُ بعيري لطلبته في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يقول: ما فرّطنا في الكتاب من شيء»[1].

وأصبح الصحابة- رضوان الله تعالى عنهم أجمعين- في فترة محدودة، ومدة معدودة من الزمن ينشرون الضياء، ويهدون الناس إلى الله سبحانه وتعالى.

4

حتى أتى على المسلمين حينٌ من الدّهر تبدّلت لديهم المفاهيم، وتغيرت المعاني والمعايير، فأصبحت نظرتُهم إلى القرآن الكريم نظرة جامدة هامدة، لا تبني جيلاً، ولا تنشئ حضارة، ولا تؤسس في النفوس الوثبة إلى الإمام، تلك الوثبة التي عاشها السابقون، وبنى عليها اللاحقون، فحقّقوا في فترات محدودة من الانتشار والهدى والعلم ما يعدُّ معجزةً حقيقية في مقياس المنصفين بشهادة أعدائهم قبل أصدقائهم..

وشمائل شهدَ العداةُ بفضلها        والفضلُ ما شهدت بها الأعداء[2].

(1) المقولة لابن عباس، انظر روح المعني، 7/ 144، للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(2) قرى الضيف، لعبد الله بن عمر بن سفيان بن أبي الدنيا، ط أضواء السلف، الرياض، ط أولى 1997مـ ت/ عبد الله بن حمد المنصور، ج2 ص 192.

5

## أعداؤنا والقرآن

لقد فهْم أعداؤنا مَكْمن السرّ، وعماد القوة لدى المسلمين، فسخّروا جيوشًا جرّارة، وجحافل متكاثرة لتحُولَ بين المسلمين وهذا الضياء الذي أحالهم من موات حقيق، وسبات عميق؛ إلى أصحابِ نهضة، ورواد حضارة، تجمع بين المادة والقيمة، وتعيد للناس النظرةَ الصحيحة بين مقولات الدين ومتطلبات الحياة، وليس بعيدًا عن أذهاننا كلمات هذا المستشرق الذي ذكر فيها أنّ المسلمين لن يتفرقوا ما دام فيهم القرآن والكعبة والأزهر.. ويقوم غرٌّ صغير ليمزّق المصحف في هذا المؤتمر، فيؤكد له أنّ الغاية تمزيقُه في صدور المسلمين، لا من الورق والقرطاس).

وتتابعت جهودهم سيلًا لا ينقطع، وزحفًا لا يتوقّف في صور متعددة، وألوان متباينة يظهر بعضها حينًا، ويخفى كثيرٌ منها حينًا، ويسخر بعض المسلمين للقيام بالتنفيذ الثالثة الأخرى

6

## خطّتهم في هذا الجانب

مِن هنا حرص أعداؤنا على أنْ يصرفوا نظرنا عن القرآن وفهمِه، والحياةِ معه حياةً فاعلة منتجة، تثمرُ وتورق وتؤتي أكلَها كلّ حين بإذن ربها.

وساعدهم على ذلك قبول المسلمين، أو كثيرٍ من المسلمين، فنجحوا في صرف اهتمامهم بالقرآن من المضمون إلى الشّكل، ومن الفهْم والتوظيف

إلى العنايـة بتجويـده وقراءتـه، ومـن إقامـة حـدوده إلى إحسـان حروفـه فحسـب، مِـن هنـا وجـب عـلى المسـلمين أن يعيـدوا النظـر في علاقتهـم بالقـرآن؛ لينتقلـوا مـمّا هُـم فيـه إلى الحـال التـي أرادهـا لهـم اللـه- تعـالى-؛ لـذا كان هـذا الجُهـد البسـيط، والعمـل المتواضـع؛ إطلالـةً عـلى أسـس الفهـم، وقواعـد الضبـط العقـلي التـي تعـين عـلى حسـن الإدراك، وحسـن التوظيـف عـلى قـدر الطاقـة البشريـة، وتحذيـرًا مـن المزالـق المهلكـة التـي يضيـع معهـا الجهـد، وتبعـثر الطاقـة، وسـعيًا إلى نقـل المعرفـة مـن دائـرة الفكـر والعقـل إلى ميـدان التطبيـق الواعـي، والتوظيـف السـليم.

هـذا وقـد قسّـمت هـذه الدراسـة بعـد المقدمـة إلى أربعـة مباحـث وخاتمـة؛ المبحـث الأول: في أنّ الفهْـم القـرآني فريضـة قرآنيـة، وضرورة حياتيّـة، وفيـه تحدّثـت عـن أهميـة فهْـم القـرآن، ووجوبـه. والمبحـثُ الثـاني: في قواعـد فهْـم القـرآن، وانتخبت منهـا عـددًا مـن القواعـد التـي تضبـط فهْـم الإنسـان للقـرآن، وتجعلـه أقـدرَ عـلى التعامـل معـه، تعامـلاً صحيحًـا؛ لأنّ السـلوك فـرعُ التصـوّر، وإذا صـحّ الإدراك كان خطـوة عـلى طريـق التنفيـذ والتعامـل، وكانـت هـذه القواعـد حـول أسـباب النـزول، وبيئـة النـزول، والناسـخ والمنسـوخ، والمُحكَـم والمتشـابه، والوقـف والابتـداء، ومعرفـة أخبـار العـرب وعاداتهـم، وعلـم أحـوال البـشر، ومعرفـة مَعْهـود الخطـاب القـرآني، وقواعـد اللغـة العربيـة، ومعرفـة موضـوع القـرآن ومقاصـده الأساسـية.

وجـاء المبحـثُ الثالـث حـول العقبـات التـي تقـف في طريـق الفهْـم الإنسـاني للقـرآن الكريـم، تلـك التـي تحُـولُ بينـه وبـين الإدراك الواعـي، والحكـم السـليم والإفـادة الحقيقيـة مـن مَعـين القـرآن الكريـم، ومِـن تلـك العقبـات: الميـل إلى نزعـة

أو مذهـب، والنظـرة الجزئيـة للقـرآن الكريـم، والوقـوف عنـد حسـن التـلاوة وجـمال الصـوت، أو وضـع النصـوص في غـيْر مواضعهـا، أو أن يكـون هـمُّ الإنسـان الكـمّ لا الكيـف، وأن يكـون غرضـه آخـرَ السـورةِ دون الوقـوف عنـد مَفادهـا، أو أن يكـون المـرء صاحـبَ قلـبٍ مريـض لا يعينـه عـلى الانتفـاع، أو أن يكـون لديـه تـورّع واهـم، أو تديّـن مغلـوط، وفهْـم مغشـوش، ومثـل الوقـوف عنـد الأبنيـة الفكريـة السـابقة دون البنـاء عليهـا، أو أن يشـغل نفسـه بالمبهَـمَات، أو يهمـل قواعـد التفسـير.

وجـاء المبحـثُ الرّابـع في مُعينـات الفهـم، وكان مـن أبـرز مـا تناولـه: المعايشـة للقـرآن الكريـم، وحضـور القلـب، والمدارسـة، وصـدق الطلـب، وسـلامة القـراءة والترسّـل فيهـا والترتيـب بـين أجزائهـا، واسـتظهار القـرآن، وإدامـة النظـر فيـه، وصـلاة الليـل، والتحـلّي بأخـلاق القـرآن: قـولًا وعمـلًا، إلى غـير ذلـك مـن المُعينـات التـي تجب عـلى طالـبِ الفهْـم القـرآني أنْ يضعهـا في حسـبانه حتـى يصـل إلى مـراده، ثـمّ كانـت الخاتمـة، وفهـرس المراجـع والمصـادر، ثـمّ فهـرس الموضوعـات؛ سـائلًا اللـه- عـزّ وجـل- أن يقبـل جهـدي، ويغفـر زلـلي، ويتجـاوز عـن سـيئاتي.

**واللهُ وحدَه خيرُ مسئول ومأمول..**

**حائل- المملكة العربية السعودية**

# المبحثُ الأوّل

# الفهمُ القرآني فريضةٌ قرآنية وضرورةٌ حياتية

قضيـة فهْـم القـرآن، ووقـوف الإنسـان عـلى توجيهاتـه وإرشـاداته، وعـبرَه ومَثُلاته، وقضايـاه في الحيـاة؛ ليسـت أمـرًا فرعيًّـا يحصّلـه مَـن يشـاء، ويهملـه مَن أراد، وليسـت قضيـة ثانويـة عـلى هامـشِ الحيـاة، تحصـل في أيّ وقـت أو لا تحصـل؛ إنمـا هـي بحـقّ فريضـةٌ قرآنيـة، وضرورة حياتيـة؛ فهـي فريضـة قرآنيـة لهـذه الآيـات التـي تعـدّدت، وألحّـت في التّأكيـد عـلى أهميـة فهْـم القـرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2]، وغـير ذلـك مـن الآيـات الكريمة التـي تحتـاج إلى دراسـةٍ مُفـردة، وهـي ضرورة حياتيّة؛ لأنّ صـلاح الإنسـان في معاشـه ومعـاده رهـنٌ بفهْمـه لهـذا الدّسـتور الخالـد، والمنهـاج القويـم؛ ذلـك أن اللـه- تعـالى- خلـق الإنسـان، ووضـعَ لـه نظامًـا يضمـن لـه العـزّ في الدنيـا، والسـعادة في الآخـرة، هـذا النظـامُ هـو القـرآن الكريـم، بأوامـره، ونواهيـه، وإرشـاداته، وتوجيهاتـه، فـإنِ اسـتطاع الإنسـان أنْ يفهـم القـرآن الفهْـم الصحيـح؛ عـزّ في الدنيـا، وأعمرهـا، وارتفـق خيرهـا، وبنـى حضارتهـا، وصـار- بحـقّ- خليفـةَ

(1) محمد: 24.

(2) الفرقان: 73.

اللـه في أرضـه، وأهـلاً لهـذا التكليـف، ومحـلاًّ لهـذا التشريـف، الـذي فضلـه اللـه- تعـالى- بـه عـلى سـائر الخلـق، وإنْ أخفـقَ في تفهّـم هـذا النظـام، الـذي هـو موضـوعٌ لصلاحـه وإصلاحـه؛ كان كمَـن انطفـأ النـور أمـام ناظريـه، فأصبـح في دياجـير الظّـلام، وإن كان ذا بـصرٍ شـديد، أو رأي رشـيد، أو عقـل سـديد؛ فلـنْ يصـل إلى مُبتغـاه، ولـن يهتـدي لهـداه، وكان كمَـن قـال: سـآوي إلى جبـلٍ يعصمنـي مـن المـاء، فنـودي: لا عاصـمَ اليـومَ مـن أمـر اللـه، وأصبـح في عـداد المغرقـين؛ لأنّ الضـوء الكاشـف خـلاه، والهـادي البصـير ودّعـه وقـلَاه، وصـار مثلـه ﴿ كَمَثَـلِ الَّـذِي اسْـتَوْقَدَ نَـاراً فَلَمَّـا أَضَـاءتْ مَـا حَوْلَـهُ ذَهَـبَ اللـــهُ بِنُورِهِـمْ وَتَرَكَهُـمْ فِـي ظُلُمَـاتٍ لاَّ يُبْصِـرُونَ {17/2} صُـمٌّ بُكْـمٌ عُمْـيٌ فَهُـمْ لاَ يَرْجِعُـونَ {18/2} أَوْ كَصَيِّـبٍ مِّـنَ السَّـمَاء فِيـهِ ظُلُمَـاتٌ وَرَعْـدٌ وَبَـرْقٌ يَجْعَلُـونَ أَصْابِعَهُـمْ فِـي آذَانِهِـم مِّـنَ الصَّوَاعِـقِ حَـذَرَ الْمَـوْتِ واللـــهُ مُحِيـطٌ بِالْكافِرِيـنَ {19/2} يَـكَادُ الْبَـرْقُ يَخْطَـفُ أَبْصَارَهُـمْ كُلَّمَـا أَضَـاء لَهُـم مَّشَـوْاْ فِيـهِ وَإِذَا أَظْلَـمَ عَلَيْهِـمْ قَامُـواْ وَلَـوْ شَـاء اللـــهُ لَذَهَـبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِـمْ إِنَّ اللَّـه عَلَـى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيـرٌ﴾[1]؛ لذلـك دلّهـم اللـه عـلى منهـاج الخـلاص في الآيـة التاليـة بقولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اعْبُـدُواْ رَبَّكُـمُ الَّـذِي خَلَقَكُـمْ وَالَّذِيـنَ مِـن قَبْلِكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ ﴾[2]، ولعلّـك تلمـح معـي التعبـيرَ القـرآني واسـتخدامه لفـظَ الربوبيـة، بمـا تحملـه هـذه الكلمـة مـن رعايـة، وعنايـة، وحياطـة، وأمـان.

(1) البقرة: 17 20- .

(2) البقرة: 21.

## صلاحُ الحياة بصلاح النفوس، وصلاحُ النفوس بتفهّمها للقرآن

لا ينكـر أحـدٌ أنّ محـور الحيـاة وقلـبَ ميزانهـا هـو الإنسـان، الـذي خلـق اللـه- تعـالى- مِـن أجلـه كلّ شيء، سـخر لـه ما في السـماوات وما في الأرض، وسـخر لـه الأنهار بمـا فيهـا، وخلـق لـه الحيـاة ومـا عليهـا؛ كي يكـون- بحـقّ- خليفتَـه في أرضـه، يُقيـم عليهـا شرعـه، وينشـئ فيهـا حضـارةً باسْـم ربّـه، فـإذا صلـح الإنسـان صلـح معـه كلّ شيء في الحيـاة، ولا يصلـح الإنسـان هكـذا ضربـةَ لازب، أو خبـطَ عشـواء، وإنمـا يصلـح بصـلاح فهْمـه للقـرآن الكريـم، هـذا الفهْـم الـذي يختـصر عـلى الإنسـان الأزمـان، ويطـوي لـه المسـافات، ويوفّـر عليـه الأيـام والأوقـات، ولنـا في العـرب قبـل الإسـلام- وبعـده- عـبرة، فـلا يخفـي مـا كانـوا عليـه قبـلاً، ومـا صـاروا إليـه بعـدًا حـين دبّـت فيهـم روحُ القـرآن، لقـد (صلحـت أنفـسُ العـرب بالقـرآن، إذ كانـوا يتلونه حـقّ تلاوته، في صلواتهـم المفروضـة، وفي تهجّدهـم، وسـائر أوقاتهـم، فرفـع أنفسـهم، وطهّرهـا مـن خرافـات الوثنيـة المذلّـة للنفـوس المُسـتعبدة لهـا، وهـذّب أخلاقهـا، وأعـلى هِمَمَهـا، وأرشـدها إلى تسـخير هـذا الكـون كلّـه لهـا، فطلبـت ذلـك، فأرشـدها طلبـه إلى العلـم بسـننه- تعـالى- فيـه مـن أسـباب القـوّة والضعـف، والغنـى والفقـر، والعـزّ والـذّل، فهداهـا ذلـك إلى العلـوم والفنـون، والصناعـات، فأحيْـت مواتَهـا، وأبدعـت فيهـا مـا لم يسـبقْه إليـه غيرهـا، حتـى قـال صاحـبُ كتـاب تطـوّر الأمـم مـن حكـماء الغـرب: (إنّ الفنـون لا تَسْـتحكم في أمّـة مـن الأمـم إلّا في ثلاثـة أجيـال: جيـل التقليـد، وجيـل

الخضرمـة، وجيـل الاسـتقلال.. وشـذّ العـربُ وحدهـم فاسـتحكمت فيهـم ملكـةُ الفنـون في جيـلٍ واحـد)[1]. إنّ ذلـك، وإنْ كان مخالفًـا لمـا عهـدَه النـاسُ مـن تطـوّر وتـدرّج، إلّا أنـه مـاضٍ عـلى النّمـط الطبيعـي الـذي يلتقـي فيـه الوحـي الـذي هـو مِـن روح اللـه تعـالى، مـع الإنسـان الـذي هـو مِـن نفْختـه: ﴿وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِّـنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنـتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ وَلَكِـن جَعَلْنَـاهُ نُـورًا نَّهْـدِي بِـهِ مَـنْ نَّشَـاء مِـنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ {52/42} صِـرَاطِ اللّـهِ الَّـذِي لَـهُ مَـا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الْأَرْضِ أَلَا إِلَـى اللّـهِ تَصِيـرُ الأُمُـورُ ﴾[2]، وكذلـك ﴿فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْـتُ فِيـهِ مِـن رُّوحِـي ..﴾[3]، فـإذا التقـتِ النّفْختـان حدثـتِ المعجـزات.. لقـد أخـرج القـرآن العـرب- عندمـا فهمـوه- مـن طـوْر البـداوة الموغِلـة إلى نَسـمات الحضـارة الباهـرة فأصبحـوا- وهُـم بالأمـس رعـاةُ إبـلٍ وغنـم- قـادةَ الدّنيـا وروّاد الأمـم، ليـس ذلـك لخصائـص في أنفسـهم فحسـب، إنّمـا أيضًـا لهـذه الـروح التـي سـكبت في أنفسـهم أثـرَ امتزاجهـا بالقـرآن، (كان المسـلمُ العـربي يتـولّى حكـم بلـد، أو ولايـة، وهـو لا علـم لـه بـشيء مـن فنـون الدولـة، ولا مِـن قوانـين الحكومـة، ولم يمـارس مـن أسـاليب السياسـة، ولا طـرق الإدارة، وإنّمـا كلّ مـا عنـده من العلـم بعـضُ سـورٍ مـن القـرآن، فيصلـح مـن تلـك الولايـة فسـادها، ويحفـظ أنفُسَـها،

(1) المنار: 7/1.

(2) الشورى: 52-53 .

(3) الحجر: 29.

وأموالهـا، وأعراضهـا، ولا يسـتأثر بـشيء مـن حقوقهـا، هـذا وهـو في حـالِ حـربٍ وسياسـة وفتـح مُضطـرّ لمراعـاة تأمـين المواصـلات مـع جيـوش أمّتـه وحكومتهـا، وسـدّ الذرائـع لانتقـاض أهلهـا، وإذا صلحـت النفـس البشريـة أصلحـت كلّ شيء تأخـذُ بـه وتتـولّى أمـره، فالإنسـان سـيدُ هـذه الأرض، وصلاحُهـا وفسـادها مَنـوطٌ بصلاحـه وفسـاده، وليسـت الـثروة ووسـائلها مـن صناعـة، وزراعـة، وتجـارة هـي المعيـار لصلاح البـشر، ولا الملـك ووسـائله مـن القـوة والسياسـة؛ فـإنّ البـشر قـد أوجـدوا كلّ وسـائل المُلْـك والحضـارة مِـن علـوم وفنـون وأعـمال، بعـد أن لمْ تكـنْ؛ فهـي إذًا نابعـة مـن مَعـين الاسـتعداد الإنسـاني، تابعـة لـه دونَ عكـس، ودليـلُ ذلـك في العكـس كدليلـه في الطّـرد؛ فإنـا نحـن المسـلمين وكثـيرًا مـن الشـعوب التـي ورثـت المُلْـك والحضـارة عـن سـلفٍ أوجدهـما مِـن العـدم ممّـن أضاعوهـما بعـد وجودهـما بفسـاد أنفسـهم) [1].

(1) المنار 7/1 .

# المبحثُ الثّاني

## قواعدُ الفهْم

إنّ الواقعَ المَعيش الذي يعانيه المسلمون يصرخُ فيهم: أنْ يعودوا إلى سبب العزّ والمجد الذي عاشه السابقون وسادوا به البلاد، وهدوا العبادَ إلى طريق الهدى والرّشاد بأمْر الله عزّ وجل، لقد كان لذلك سببٌ ظاهر ظهورًا عرفه الصحابةُ بعد أن عاشوه، بل عايشوه حقيقةً واقعة، وأمرًا ملموسًا في حياة الناس، وهو قربهم مِن فهْم هذا الدّستور الرّبّاني الخالد. إنّ أوامر القرآن تتوالى على أسماع المسلمين، تأمرهم بالتدبّر والتفكّر والنظر والاعتبار، وتتواترُ على أذهانهم تدعوهم- وغيرهم- للنّظر في مَضامين القرآن الكريم، وارتفاق خيره، والانتفاع بتوجيهه وإرشاده، وحتى يصل المسلمون إلى فهْم سليم للقرآن الكريم، وإدراكٍ عاقل لمُراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية. هناك عددٌ مِن القواعد التي إنْ رعوْها حقّ رعايتها وساروا على هديها؛ وصلوا إلى برّ الفهْم السليم، ومرفأ الإدراك الآمن لمحتوى القرآن الكريم وهذه القواعدُ نذكرُ منها ما يلي:

## القاعدةُ الأولى

## معرفةُ أسباب النّزول

لا شكّ أنّ معرفة سببِ نزول الآية بابٌ عظيم مِن أبواب فهْمها، وطريقٌ قوي مِن طرق التوصّل إلى إدراك مرادِ الله تعالى فيها بقدر الطاقة البشرية، والأسباب: جمعُ سبب، والسببُ: ما يتوصّل به إلى غيره؛ لذلك سمي الحبلُ سببًا في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: 15]، والنزولُ وردَ في اللّغة بمعني: الانحدار مِن أعلى إلى أسفل، وبمعنى: الانتقال من مكان إلى آخر، ومن الأوّل قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[(2)]، وقوله تعالى على لسان نبي الله عيسى - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {114/5}﴾[3] ومن الثاني قولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ {29/23}﴾[4].

(1) الحجر: 9.

(2) القدر: 1.

(3) المائدة: 114.

(4) المؤمنون: 29.

والمـرادُ بسـببِ النّـزول: مـا نزلـت الآيـة أو الآيـات مُتحدّثـة عنـه وقـتَ نزولـه، أو مُبينـة لحكمـه أيـامَ وقوعـه، كأنْ يكـون ذلـك حادثـة وقعـت، أو سـؤالًا وجّـه إلى النبـي، فنـزلَ الوحـي لبيـان مـا يتّصـل بهـذه الحادثـة، أو بجـواب هـذا السـؤال [1]، وذلـك مثـل حادثـة «خولـة بنـت ثعلبـة» التـي ظاهـرَ منهـا زوجُهـا أوس بـن الصامـت، فنزلـتْ بسـببها آيـاتُ الظّهـار في سـورة المجادلـة [2].

والقـارئ أو الباحـثُ الـذي يـدرك سـببَ نـزول الآيـة التـي يقرؤهـا تكـون لديـه القـدرة عـلى الفهْـم الصائـب، والإدراك الواعـي لمُـراد القـرآن الكريـم، فـلا يفـسّر آيـةً بغـيْر وجههـا، ولا يضـع كلمـةً في غـير بابهـا. مِـن هنـا، عنيـت كتـبُ علـوم القـرآن بتأكيـد هـذه الناحيـة مِـن نواحـي فهْـم القـرآن، واعتبارهـا قاعـدة أصيلـة مـن قواعـد الفهْـم القـرآني؛ يقـول شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه-: (ومعرفـةُ سـبب النـزول يُعـين عـلى فهمـه؛ فـإن العلـم بالسـببِ يـورث العلـمَ بالمسـبّب، ولهـذا كان أصحّ قـولِ الفقهـاء أنـه إذا لم يعـرف مـا نـواه الحالـف؛ رجـعَ إلى سـبب يمينـه، ومـا هيّجهـا، وآثارهـا) [3].

(1) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/ 106، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط: دار إحياء الكتب العربية، بدون.

(2) انظر باب النقول في أسباب النزول، 746، للإمام السيوطي، بهامش تفسير الجلالين، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(3) مقدمة أصول التفسير صـ 81 بتحقيق إبراهيم بن محمد، ط: دار المؤيد، ط. أولى 1423هـ 2002م.

مِـن هنـا، اعتنـى العلـماءُ بمعرفـة سـبب النـزول، وأفـردوه بدراسـات خاصـة، فألّـف فيـه عـلي بـن المدينـي شـيخ الإمـام البخـاري، والواحـدي، النيسـابوري، وابـن الجـوزي والجعـبري، وابـن حجـر، والسـيوطي، وغـير هـؤلاء ممّـن يطـول المقـام بذكرهـم، كـما اعتنـى بـه المفـسّرون في مقدّمـات تفاسـيرهم التـي تعـدّ بـذورًا لكثـيرٍ مـن قواعـد الفهْـم القـرآني وأصـول التفسـير.

ولذلـك خطّـأ الإمـام الزركـشي مَـن زعـم أنّ أسـباب النـزول تدخـل في بـاب التاريـخ، فقـال في برهانـه: «أخطـأ مَـن زعـم أنـه- أي علـم أسـباب النـزول- لا طائـل تحتـه لجريانـه مجـرى التاريـخ، وليـس كذلـك؛ بـل لـه فوائـدُ، منهـا: بيـان وجْـه الحكمـة الباعثـة عـلى التشريـع، ومنهـا تخصيـصُ الحكـم عنـد مَـن يـرى أنّ العـبرة بخصـوص السـبب، ومنهـا الوقـوفُ عـلى المعنـى، قـال الشـيخ أبـو الفتـح القشـيري- وهـو ابـنُ دقيـق العيـد-: «بيـان سـبب النـزول طريـقٌ قـوي في فهْـم معـاني الكتـاب العزيـز، وهـو أمـرٌ تحصّـل للصحابـة بقرائـنَ تحتفـي بالقضايـا، ومنهـا أنّـه قـد يكـون اللّفـظُ عامًّـا، ويقـوم الدّليـل عـلى التخصيـص؛ فـإنّ محـلّ السـبب لا يجـوز إخراجـه بالاجتهـاد بالإجـماع، ومنهـا رفـع توهّـم الحـصْر، ومنهـا إزالـة الإشـكال»[1]. فمعرفـة سـببِ نـزول الآيـة يُعـين عـلى فهْـم المـرادِ منهـا، ويُعـين

(1) انظر البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي، دار صـ 116 وما بعدها بتصرف، ط دار المعرفة، بيروت لبنان، ط أولى 1410هـ/ 1990م، ت د. يوسف المرعشلي وآخرين..

على دفْع الإشكال، حتى قال الإمامُ الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دونَ الوقوف على قصّتها، وبيان سبب نزولها» [(1)].

كما إنّ إدراك السبب يُعين على الحفظ، ويثبت الوحي في ذهْن مَن سمع الآية؛ وذلك لأنّ ربط الأسبابِ بالمسبّبات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة؛ كلّ ذلك مِن دواعي تقرّر الأشياء، وانتقاشها في الذّهن، وسهولة اسْتذكارها عند استذكار مُقارناتها في الفكْر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرّر في علم النفس[(2)]، ويمكن أن تدركَ قيمة سببِ النزول وأثرَ معرفته في فهْم الآية مِن نصوص متعدّدة، فعروة بن الزبيررضي الله عنه وأرضاه يفهمُ قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ {158/2} ﴾[(3)] [البقرة: 158] يُفهم مِن الآية الكريمة أنْ لا إثمَ على مَن ترك السعي بين الصفا والمروة؛ لأنّ الآية الكريمة تقول: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ونفي الجناح لا يدلّ على الفرضيّة، حتى صوّبت له خالته السيدة عائشة في فهْم بتذكيره بسببِ النّزول، وهو أنه كان على الصفا صنمٌ

(1) انظر أسباب النزول، للواحدي.

(2) انظر مناهل العرفان، صـ 113، 114، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم، صـ125 للأستاذ محمد أبي شهبة، وانظر دراسات في علوم القرآن، صـ 198، ط: دار المنار لأستاذنا المرحوم د. محمد بكر إسماعيل طيّب الله ثراه.

(3) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ126، بتصرف.

يُقال له (إساف)، وعلى المرْوة صنمٌ يقال له (نائلة)، وكان المشركون إذا سعوا تمسّحوا بهما، فلمّا ظهر الإسلام وكُسرت الأصنام؛ تحرّج المسلمون أن يطوفوا بهما لذلك، ولأنّ الله تعالى لم يذكرِ السعي بين الصّفا والمروة في القرآن كما ذكر الطّواف[1]. وكما أشكل على مروان بن الحكم فهمُه قولِه تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {188/3}﴾ [2] حتى بعث إلى ابن عباس يقول: لئن كان كلّ امرئ فرحَ بما أوتي، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذبًا لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: إنّ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبيُّ عن شيء فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيره، وأروه أنّهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه) [3]، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

وخلاصةُ القول: أنّ إدراك سبب النزول يُعين على فهْم الآية فهمًا صحيحًا، ويزيل مِن الذّهن اللبس والإشكال، بل يعين على الحفظ والاستذكار.

---

(1) انظر صحيح البخاري، 2 /635، وانظر سببَ نزول الآية في العجاب في بيان الأسباب، ج1 ص406، للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر، و ط دار ابن الجوزي، الدمام، ط أولى 1997م، ت/ محمد عبد الحكيم الأنيس.

(2) آل عمران: 188 .

(3) انظر في سبب النزول: مسلم ج4 ص2143، 110وانظر أسباب النزول للإمام الواحدي صـ24 و25 وصـ 78، ط دار الكتب العلمية، ط أولى 1402 هـ 1982 مـ ، المدخل الدراسة القرآن الكريم صـ 129.

## القاعدةُ الثّانية

## معرفةُ بيئة النّزول

وأقصدُ ببيئة النزول أولًا البيئة المكانيّة، فغيرٌ خافٍ على مسلمٍ أنّ القرآن نزل على مرحلتين؛ المرحلة الأولى في مكة، والمرحلة الثانية في المدينة؛ ولكلّ نزولٍ بيئته الخاصة به، وملابساته، وأحواله التي إنْ أدركها قارئ القرآن الكريم وسامعه، ووضعها المفسّر في حسبانه وذهنه؛ قصر عليه مسافات كثيرة في الفهْم والإدراك. مِن هنا، عني علماؤنا وسلفُنا الصالح بإفراد ذلك في دراساتٍ متعدّدة تحت باب: المكّي والمدني في القرآن الكريم، فألفوا فيه ضمنَ كتابتهم عن علوم القرآن، فلا يكاد يخلو كتابٌ من كتب علوم القرآن من الحديث عن المكي والمدني، وانظر في ذلك البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة، ومباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح، والشيخ منّاع القطان، ودراسات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل، وغير ذلك من الكتب التي عُنيَت بذكْر هذا المبحث من مباحث علوم القرآن.

والمكي كما وردَ في تعريف العلماء: هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني هو ما نزل بعد الهجرة، وهذا هو المختارُ من التعريفات المتعدّدة [1]، ولا شكّ أن

(1) انظر الإتقان: ج1 ص34.

إدراك البيئـة المكانيّـة لنـزول الآيـة الكريمـة يُعـين عـلى فهْمهـا، وإدراك مراميهـا؛ لذلـك قـال شـيوخُنا: «معرفـة المـكّي والمـدني مـن المباحـث المهمّـة التـي يحتـاج لهـا المفسّر لكتـاب اللـه تعـالى، ممّـن نصّـب نفسَـه للاجتهـاد والفُتْيـا والقضـاء؛ كي يُمكنهـم التوصّـل إلى الحـقّ والصّـواب؛ ولذلـك قـال أبـو القاسـم النيسـابوري في كتابـه «التنبيـه عـلى فضـل علـوم القـرآن»: «مِـن أشرف علـوم القـرآن علـمُ نزولـه، وجهاتـه، وترتيـب مـا نـزل بمكّـة، ومـا نـزل بالمدينـة، ومـا نـزل بمكّـة وحُكمـه مـدني، ومـا نـزل بالمدينـة وحُكمـه مـكي، ومـا نـزل بمكـة في أهـل المدينـة، ومـا نـزل في المدينـة في أهـل مكـة، ومـا يشـبه نـزول المـكي في المـدني، ومـا يشـبه نـزول المـدني في المـكي»[1]، ولهـذه القاعـدة فوائـدُ متعـدّدة منهـا: التّمييـز بـين الناسـخ والمنسـوخ، ومعرفـة تاريـخ التشريـع، ومنهـا الثقـة بهـذا القـرآن، ووصولـه إلينـا سـالمًا مِـن التّغيـير والتّزييـف، ومعرفـة الخصائـص البلاغيـة للقـرآن الكريـم المـكّي والمـدني، ولا يخفَـى عـلى إنسـانٍ منزلـة معرفـة المـكّي والمـدني مـن القـرآن والوصـول إلى مراميـه.

(1) انظر الإتقان: ج 1، ص: 34، المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ 197.

## القاعدةُ الثّالثة

## معرفةُ النّاسخ والمنسوخ

معرفـةُ النّاسـخ والمنسـوخ في القـرآن الكريـم مِـن أسـس فهْـم القـرآن وإدراك معانيـه؛ ولـذا عُنـي بـه السـابقون، وصنّفـوا فيـه. يذكـر الإمـام الزركـشي ذلـك في برهانــه فيقــول: والعلــم بــه عظيــمُ الشــأن، وقــد صنّــف فيــه جماعــةٌ كثــيرون، منهــم قتــادة بــن دعامــة الســدوسي، وأبــو عبيــد القاســم بــن ســلام، وأبــو داود السجســتاني، وأبــو جعفــر النحــاس، وهبــة الدّيــن بــن ســلام الضريــر، وابــن العــربي، وابــن الجــوزي، وابــن الأنبــاري، وغيرهــم... وقــد قــال الأئمــة: لا يجــوز لأحــدٍ أن يفــسّر كلام اللــه إلّا بعــد أن يعــرف فيــه الناســخ والمنســوخ. وقــد قــال عــلي بــن أبي طالــب لقــاص: أتعــرف الناســخ والمنســوخ؟ قــال: لا أعلــم، قــال: هلكــتْ وأهلكــت»[1]، ومعرفــة الناســخ والمنســوخ ركــنٌ عظيــم في فهْــم الإســلام، وفي الاهْتــداء إلى صحيــح الأحــكام، خصوصًــا إذا مــا وجــدت أدلــة متعارضــة لا ينــدفــع التّناقــض فيهــا إلّا بمعرفــة ســابقيها ولاحقيهــا، وناســخها ومنســوخها؛ ولهــذا كان ســلفُنا الصالــح يعْنــون بهــذه الناحيــة، ويلفتــون أنظــارَ النــاس إليهــا، ويحملونهــم عليهــا، ولقــد جــاء في الأثــر أنّ ابــن عبــاس رضــي اللــه عنــه فــسّر الحكمــة

(1) انظر البرهان في علوم القرآن: ج2 صـ 157، 158 بتصرف يسير.

في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابه، ومقدّمه ومؤخّره، وحلاله وحرامه، ولا شكّ أنّ إدراك الناسخ والمنسوخ يقف الباحث والمفسّر على السابق والمسبوق من القرآن الكريم، ويطلعه على الأحوال التي نزل القرآنُ الكريم ليعالجها، وهذه كلّها شواهدُ تحيط الإنسان علماً بالمناخ الذي نزل فيه القرآن الكريم، وتجعله أقدرَ على توظيف الآية القرآنية الكريمة في مكانها الطبيعي دونَ غلوٍّ ولا شطط، (إنّ علم الناسخ والمنسوخ يلقي الضوء ساطعًا على المراحل المُتعاقبة لنزول القرآن الكريم، ويُعين على تتبّعها ورسمها بدقّة بالغة، وهو ضربٌ من ضروب التدرّج في نزول الوحي، ومعرفتنا بما صحّ مِن جوهره تيسّر علينا تعْيين السّابق والمسبوق من النوازل القرآنية، وتظهرنا على جانبٍ من حكمة الله تعالى في تربية الخلْق، وتوقِفنا على المصدر الحقيقي للقرآن الكريم، وهو اللهُ تعالى ربُّ العالمين لأنّه يمحو ما يشاء ويُثْبت، ويوقع حكماً ويبدّل آخر، من غير أن يكون لأحدٍ مِن خلقه عملٌ في ذلك ولا شأن)[2].

(1) البقرة: من الآية 269

(2) انظر مباحث في علوم القرآن، د صبحي الصالح، ط دار العلم للملايين، ط الرابعة، بتصرف يسير.

فعلْـمُ النّاسـخ والمنسـوخ بـابٌ مـن أبـواب فهْـم القـرآن فهـمًا صحيحًـا دونَ خلـطٍ بـين المفاهيـم؛ لأنـه يوضّـح مسـيرة التشريـع الإسـلامي في المسـائل الاجتماعيـة والتشريعيـة، ويضـع خارطـةً في ذهْـن الباحـث والمفـسّر مـن خلالهـا يسـتطيع أن يسـتبينَ مواطـن خطواتـه ومظـانّ مطلوبـه.

## القاعدةُ الرّابعة

## معرفةُ المُحكَم والمتشابه

معرفـةُ مُحكـم القـرآن الكريـم ومتشـابهِه بـابٌ قـوي مـن أبـواب الفهْـم الصحيـح للقـرآن الكريـم، وطريـقٌ مـن طـرق التوصّـل إلى إدراك المعنـى القـرآني عـبْر وسـيلة آمنـة، وضابـطٌ مـن الضوابـط التـي لـو رعاهـا المفسّر والباحـث والقـارئ لنجـا مـن الزيـغ والسـقوط في فهْـمٍ غـير صحيـح، أو رأي غـير عاقـل.. مِـن هنـا، عنـي العلـماء قديمًـا وحديثًـا لهـذا البـاب في دراسـاتٍ خاصـة، وفي تناولهـم لمباحـث علـوم القـرآن؛ وإطلالـةٌ سريعـة عـلى فهْـرس أيّ سـفْر مـن أسـفار علـوم القـرآن سـتوضّح هـذا الأمـر ببسـاطةٍ ويُـسر.

ذلـك أنّ القـرآن الكـريم وردت فيـه آيـاتٌ ثلاث، تفـيد أولاها: أنّ القـرآن الكريم كلّـه مُحكـم، وهـي قولـه تعـالى: ﴿ الَـر كِتَـابٌ أُحْكِمَـتْ آيَاتُـهُ ثُـمَّ فُصِّلَـتْ مِـن لَّـدُنْ حَكِيـمٍ خَبِيـرٍ {1/11} ﴾ [1] والثانيـةُ آيـةٌ تـدلّ عـلى أنـه كلّـه مُتشابـه، وهـي قولـه تعـالى: ﴿ اللـّـهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَدِيـثِ كِتَابًـا مُّتَشَـابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُـمْ ثُـمَّ تَلِيـنُ جُلُودُهُـمْ وَقُلُوبُهُـمْ إِلَـى ذِكْرِ اللـّـهِ ذَلِـكَ هُدَى اللـّـهِ يَهْدِي بِـهِ مَـنْ يَشَـاء وَمَن يُضْلِلْ اللـّـهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَـادٍ {23/39} ﴾[2]، والثالثةُ تفيد أنّ بعضه

(1) فصلت: 1.

(2) الزمر: 23.

مُحكم، وبعضه متشابه، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {7/3}﴾ [1].

وقد ذكر العلماء وجوهًا وتوجيهاتٍ لهذه الآيات الكريمة، نختار منها: أن المراد بالإحكام: (أنه رصينٌ ومُتقن حكيم يتحدّى الزمن، ولا ينتابه تصدّع ولا وَهَن، ومعنى كوْنه متشابهًا: أنّه يشبه بعضه بعضًا في إحكامه، وحسن بيانه، وبلوغه حدّ الإيجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنّك لا تستطيع أن تفاضل بين كلمات وآيات في هذا الحسن والإحكام والإيجاز كأنّه حلقة مُفرغة لا يدري أين طرفاها، وأمّا أن بعضه مُحكَم وبعضه متشابه فمعناه: أنّ من القرآن ما اتّضحت دلالته على مراد الله تعالى، ومنه ما خفيتْ دلالتُه على هذا المُراد الكريم؛ فالأوّل هو المحكَم، والثاني هو المُتشابه، على خلافٍ بين العلماء في ذلك، على أنّ الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنّه لا تنافي بين كوْن القرآن كله محكمًا دقيقًا وبيْن كونه كلّه متشابهًا أي يشبه بعضه بعضًا في هذا الإتقان والإحكام، وبين كونه منقسمًا إلى ما اتّضحت دلالتُه على مراد الله تعالى وما خفيتْ دلالته.

(1) آل عمران: 7.

ومـمّا يظهـر لـك منزلـةَ هـذا البـاب في الفهْـم والتفسـير أنْ تـدرك أنّ آيـة «آل عمـران» وهـي قولـه تعـالى: ﴿هُـوَ الَّـذِيَ أَنـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُّحْكَمَـاتٌ هُـنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ﴾ الآيـة كانـت فارقـةً بـين السّـلف والخلـف في الفهْـم والتفسـير، فقـد وقـف السـلف عـلى قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلاَّ اللّـهُ﴾، وعـدّوا الـواو اسْـتئنافيّة لمعنـى جديـد، ورأى الخلـفُ أنّ الـواو العاطفـة عطفـتِ الرّاسـخين في العلـم عـلى لفـظ الجلالـة (اللـه) في العلـم بالمُتشـابه، يقـول الإمـام الزركـشي- رحمـه اللـه- في البرهـان: (فمنهـم مَـن رجّـح أنهـا (أي الـواو) للاسْـتئناف، وأنّ الوقـف عـلى «إِلَّا اللَّـه» أن اللـه تعبّدهـم مـن كتابـه بمـا لا يعلمـون، وهـو المتشـابه، كـما تعبّدهـم مـن دينـه بمـا لا يعقلـون، وهـو التعبّـدات..، وفهِـم مَـن رجّـح أنهـا للعطـف أنّ اللـه لم يكلّـف الخلـق بمـا لا يعلمـون، وضعّـف الأول لأن اللـه لم ينـزل شـيئًا مـن القـرآن إلّا لينتفـع بـه عبـادُه، ويـدلّ عـلى معنـى أراده، فلـو كان المتشـابه لا يعلمـه غـير اللـه لكـرّر معنـاه، ولا يسـوغ لأحـدٍ أن يقـول: إنّ رسـول اللـه ﷺ لم يعلـم المتشـابه، فـإذا جـاز أن يعرفـه الرسـول مـع قولـه: ﴿وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلاَّ اللّـهُ﴾جـاز أن يعرفـه الرّبّانيـون مـن صحابتـه، والمفسّرون مـن أمّتـه، ألا تـرى أن ابـن عبـاس كان يقـول: أنـا مِـن الراسـخين في العلـم، ويقـول عنـد قـراءة قولـه تعـالى في أصحـاب الكهـف ﴿مَّـا يَعْلَمُهُـمْ إِلَّا قَلِيـلٌ﴾ [1]وأنـا مِـن أولئـك القليـل)[2].

مِن هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لتفسير كتاب الله عزّ وجل.

(1) الكهف: 22.

(2) البرهان: جـ2، صـ 202، 203، والأثر أخرجه الطبري عند تفسير الآية الكريمة، والسيوطي في الدرّ المنثور.

## القاعدةُ الخامسة

## معرفةُ الوقْف والابتداء

ولا شــكّ أن معرفــة الوقــف والابتــداء مُعــين عــلى معرفــة اكتــمال المعنــى، وفهْــم المــراد؛ لذلــك عُنــي بــه العلــماء قدامــى ومحدثــين، وعــدّوه علــماً مســتقلًّا مــن علــوم القــرآن، وقــد مــضى بنــا قبــلَ قليــل مــدى الخِــلاف الواقــع بــين السّــلف والخلــف مــن أجــل خلافهــم في الوقْــف، وذلــك مِــن خــلال آيــة «آل عمــران»، ونســتطيع أن نفــرّق بــين قــارئٍ فاهــمٍ للقــرآن وقــارئٍ غــير واقــف عــلى المعــاني؛ مــن طريقــة الوقــف والابتــداء عنــدَ كليْهــما، فقــد تســمع قارئًــا يقــرأ قولَــه تعــالى: ﴿فَجَاءتْــهُ إِحْدَاهُمَــا تَمْشِــي عَلَــى اسْــتِحْيَاء قَالَــتْ إِنَّ أَبِــي يَدْعُــوكَ لِيَجْزِيَــكَ أَجْــرَ مَــا سَــقَيْتَ لَنَــا فَلَمَّــا جَــاءهُ وَقَــصَّ عَلَيْــهِ الْقَصَــصَ قَــالَ لَا تَخَــفْ نَجَــوْتَ مِــنَ الْقَــوْمِ الظَّالِمِيــنَ {25/28} ﴾[1]، فيقــف عــلى ﴿ اسْــتِحْيَاء ﴾ ويبــدأ بقولــه: ﴿عَلَــى اسْــتِحْيَاء قَالَــتْ﴾، فيفيــدك معنيَــيْن: الأول أنّ مشــيها كان عــلى اســتحياء، والثــاني أنّ كلامهــا عــلى اســتحياء، ومــا ذلــك إلّا لفهمــه للمعنــى المبنــي عــلى طريقــة الوقــف والابتــداء، وتســمع آخــرَ يقــرأ قولــه تعــالى: ﴿يَــا بُنَــيَّ لَا تُشْــرِكْ بِاللـــهِ إِنَّ الشِّــرْكَ لَظُلْــمٌ عَظِيــمٌ ﴾[2]، فيقــف عــلى قولــه: ﴿ لَا تُشْــرِكْ﴾، ثــمّ يبــدأ بقولــه: ﴿ بِاللـــهِ

(1) القصص: من الآية 25.

(2) لقمان: من الآية: 13.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، فيفِدْك النهي عن الشرك، والقسمُ بالله: أنّ الشرك ظلم عظيم، وذلك مَفاد من طريقة الوقف والابتداء، وكمْ في القرآن الكريم من جُمل تحمل هذه الوقفات، حتى عدّه العلماء علماً من علوم القرآن لا يكون المرء مؤهّلاً للفهْم إلّا به. مِن هنا كثرت عناية السّلف بالحديث عن الوقف والابتداء، وصِلتهما بالمعنى، وأهمية إدْراكها، ولم يكنْ هذا الاهتمام إلّا بعد العصور الأولى لأسبابٍ متعدّدة، منها: أنّ الوقف والابتداء كان معروفًا لدى الأوّلين حتى اختلطت الأمورُ على مَن بعدهم، فنشط لذلك حكماء أفذاذ، ضبطوا وقوف القرآن وابتداءاته حسب مقتضيات المعنى، فألّف فيه عددٌ من العلماء، منهم: ابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وأبو عمرو بن العلاء أحدُ القراء السبعة، والإمام نافع الليثي أحدُ القراء كذلك، والإمام ابن الجوزي، وغيرهم.. يقول الطاهر بن عاشور- رحمه الله-: (لم يشتدّ اعتناء السلف بتحديد أوقاف القرآن لظهور أمرها، وما ذكر عن ابن النحاس من الاحتجاج لوجوب ضبط أوقاف القرآن بكلامٍ لعبد الله بن عمر ليس واضحًا في القرائن المُحتج بها..، فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهمّ؛ لأنّ عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي فيهم تقوم به الحجّة عليهم وعلى دَهْمائهم، فلمّا كثر الداخلون في الإسلام من دَهْماء العرب، ومِن عمومِ بقية الأمم توجّه اعتقاد أهل القرآن إلى ضبط وقوفه تيسيراً لفهْمه على قارئيه، فظهر الاعتقاد بالوقوف، وروعي فيها ما

يراعى في تفسير الآيات، فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف[1]»، وقد اعتنى العلماء- على رغم ذلك- ببيان مواطن الوقْف والابتداء، وأنواعه، والوقْف المأخوذ عن النبي ﷺ، وكتبوا فيه كتبًا مستقلّة، وأكّدوا على صِلة المعنى بالوقْف والابتداء، بل ذكروا أنّ الأحكام الشرعية لا تستنبط استنباطًا صحيحًا إلّا بتمام معرفة هذا العلم من علوم القرآن، حتى قال الإمام النكزاوي: (وبابُ الوقف عظيم القدر، جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتّى لأحدٍ معرفةُ معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلّا بمعرفة الفواصل) ونُقل عن أبي حاتم قولُه: (مَن لم يعرف الوقْف لم يعلم القرآن). وبالجملة، فالوقف حلية التلاوة، وزينة القارئ، وبلاغ التالي، وفهْم المستمع، وشرفٌ للعالم، به يعرف الفرق بين المعْنيَين المختلفين، والقضيّتين المتنافيتيْن، والحُكمين المتغايريْن، ومِن الضروري للقارئ أن يفهم ما يقرأ؛ حتى لا يغير المعنى حالَ قراءته، وأن يكون يقظًا متفهّمًا ما يقرأ، ملاحظًا في الآيات، وما ترمي إليه مواقعُ الجُمل دونَ الالتفات إلى التّباهي بطول النفس، ودونَ الوقوف لأداء معان تتّفق والأهواء البشرية، بعيدة عن شرف المعنى القرآني وإعجازه [2]، وممّا مثل به العلامة ابن عاشور من فوائد معرفة

---

(1) التحرير والتنوير: 1/ 84.

(2) انظر الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، رسالة ماجستير لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، صـ 4، 5 بتصرف يسير، وانظر هذه النقول في كتاب الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء، للنكزاوي، صـ11، ولطائف الإشارات للقسطلاني،1/ 249.

الوقـف والابتـداء وبديـع أمثلتـه لـه؛ قولُـه: (إن التعـدّد في الوقـف قـد يحصـل بـه مـا يحصـل بتعـدّد وجـوه القـراءات مـن تعـدّد المعنـى مـع اتحـاد الكلـمات، فقولـه تعـالى: ﴿ وَيُطَـافُ عَلَيْهِـم بِآنِيَـةٍ مِّـن فِضَّـةٍ وَأَكْـوَابٍ كَانَـتْ قَوَارِيـرَا {15/76} قَوَارِيـرَ مِـن فِضَّـةٍ قَدَّرُوهَـا تَقْدِيـرًا ﴾[1] إذا وقـف عـلى: «قَوَارِيـرَ» الأول كان ﴿ قَوَارِيـرَا ﴾ الثـاني تأكيـدًا لرفـع احتـمال المجـاز في لفـظ: «قَوَارِيـرَ»، وإذا وقـف عـلى: «قَوَارِيـرَ» الثـاني كان المعنـى الترتيـب والتصنيـف، كـما يقـال: قـرأت الكتاب: بابًـا، بابًـا، وحضروا: صفًّـا، صفًّـا، وكان قولـه: «مِّـن فِضَّـةٍ» عائـدًا إلى قولـه: ﴿ بِآنِيَـةٍ مِّـن فِضَّـةٍ﴾[2]. وهـذا مـن روائـع ابـن عاشـور في اسـتنباطاته ولطائفـه.

مِـن أجـل ذلـك أكّـد سـلفنا عـلى اكتـمال المعنـى لـدى القـارئ عنـد قراءتـه حتـى يفهمـه، ويفْهِـم سـامعه، فيبـدأ بالـكلام المتّصـل بعضـه ببعـض، ويقـف عنـد تمـام المعنـى، حتـى ذكـر الإمـام النـووي في تبْيانـه: (أنّ القـارئ إذا ابتـدأ مـن وسـط السـورة، أو وقـف عـلى غـير آخرهـا ينبغـي لـه أن يبتـدئ مـن أول الـكلام المرتبـط بعضـه ببعـض، وأن يقـف عـلى الـكلام المرتبـط، ولا يتقيّـد بالأعشـار والأجـزاء؛ فإنهـا تكـون في ربـط الـكلام المرتبـط، وبعـد أن مثّـل لبعـض الأعشـار والأربـاع التـي لا تتـمّ قـال: «مثـل هـذا وشـبيهُه ينبغـي أن يبـدأ بـه ولا يوقـف عليـه؛ فإنـه متعلّـق بمـا قبلـه، ولا يعـترف بكـثرة الغافلـين لـه مـن القـرّاء الذيـن لا

(1) الإنسان: 15، 16.

(2) التحرير والتنوير:1/ 83.

يراعــون هــذه الآداب، ولا يفكّــرون في هــذه المعــاني». ومثــل مــا رواه الحاكــم أبــو عبــد اللــه بإســناده عــن الســيد الجليــل الفضيــل بــن عيــاض رضــي اللــه عنــه قــال: «لا تســتوحش طــرقَ الهــدى لقلّــة أهلهــا، ولا تغــترّ بكــثرة الهالكــين، ولا يغــرّك قلّــة الســالكين». ولهــذا المعنــى قالــت العلــماء: قــراءة ســورة قصــيرة بكاملهــا أفضــلُ مــن قــراءة بعــض ســورةٍ طويلــة بقــدر القصــيرة؛ فإنــه قــد يخطــئ الارتبــاط عــلى بعــض النــاس في بعــض الأحــوال. وقــد روى ابــن أبي داود بإســناده عــن عبــد اللــه بــن أبي الهذيــل التابعــي المعــروف رضــي اللــه عنــه قــال: «كانــوا يكرهــون أنْ يقــرؤوا بعــض الآيــة ويتركــوا بعضهــا»[1]، وخلاصــة القــول أنّ معرفــة الوقــف والابتــداء مــن أبــواب فهْــم القــرآن، وطريــقٌ مــن طــرق بيــان المعنــى واتّضاحــه في ذهــن القــارئ والســامع، وكــمْ رأينــا مِــن أنــاس يقفــون عــلى كلــماتٍ يــؤدي وقفُهــم إلى فســاد المعنــى وإضاعــة المــراد.

(1) انظر التبيان في آداب حملة القرآن: صـ 75، 76.

## القاعدةُ السّادسة

## معرفةُ عادات العرب وأخْبارهم

مـن الأمـور اللّازمـة للمفـسّر حتـى يفهـم مـرادَ القـرآن، ويعـي مرمـاه؛ أنْ يـدرك عـادات العـرب التـي نـزل القـرآن ليتحـدّث عنهـا، تلـك التـي تمثّـل لهـم حياتهـم الخاصـة، التـي تتميّـز عـن حيـاة مَـن سـواهم، وتنفـرد ببعـض الخصائـص والسـمات، التـي راعاهـا القـرآن الكريـم، ووضعهـا في حسـبانه وهـو يأمرهـم وينهاهـم، ويعظهـم، ويرشـدهم، ويوجّههـم إلى الـصراط المسـتقيم، فقـد كان للعـرب- مثـلًا- عـادات وأعـراف في علاقـة الرجـل بالمـرأة، ونظرتـه إليهـا في طفولتهـا، ويَفاعَتهـا، وشـبابها، ونـزل القـرآن الكريـم يراعـي هـذه العلاقـةَ وتلـك النظـرة، وأنـزل لهـا الخطـاب الـوافي الكامـل الـذي يتناسـب مـع تلـك العـادات، واقـرأ- إن شـئت- مثـلًا قولَـه تعـالى وهـو يتحـدّث عـن علاقـة الأب بولـده إن كان أنثـي: ﴿ وَإِذَا بُشِّـرَ أَحَدُهُـمْ بِالأُنْثَـى ظَـلَّ وَجْهُـهُ مُسْـوَدًّا وَهُـوَ كَظِيـمٌ {58/16} يَتَـوَارَى مِـنَ الْقَـوْمِ مِـن سُـوءِ مَـا بُشِّـرَ بِـهِ أَيُمْسِـكُهُ عَلَـى هُـونٍ أَمْ يَدُسُّـهُ فِـي التُّـرَابِ أَلاَ سَـاء مَـا يَحْكُمُـونَ {59/16} ﴾[1]، والآيـةُ تصـوّر بوضـوح وجَـلاء علاقـةَ العـربي بابنتـه، وترصـد تلـك الخلفيـة الاجتماعيـة التـي كان يحياهـا الإنسـان العـربي في هـذا الزمـان،

(1) النحل: 58، 59

واقرأ- إن شئت كذلك- قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ {17/43} أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ {18/43} ﴾[1]، والآية الكريمة تصوّر كذلك طبيعة هذا العربي الذي يجعل لله تعالى ما يأباه هو لنفسه، ويجعل له الإناث، في الوقت الذي يأبى أن يرضاهنّ لنفسه، وإذا بُشر بهنّ اسْودّ وجهه، بل ظلّ مسودًّا وهو كظيم، ومن العادات التي رصدها القرآن الكريم في حياة العرب كذلك دخولهم من خلف الدار في الأشهر الحرم، والتي صوّرها القرآن الكريم بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {189/2}﴾[2]، فكيف يتسنى لمفسّر أن يفهم هذه الآية دونَ أن يفْهم عادات العرب في ذلك، فقد ذكر أهلُ التفسير أنّ العرب (كانوا إذا أحرموا الحجَّ أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألّا يدخل المُحرم بيتَه من بابه، ولا يدخل تحت سقف يَحول بينه وبين السماء، وكان المحرمون إذا أرادوا أخذَ شيء من بيوتهم تسنّموا على ظهور البيوت، واتخذوا نقبًا في ظهور البيوت إن كانوا مِن أهل المدر، وإن كانوا

(1) الزخرف: 17، 18.

(2) البقرة: 189.

مـن أهـل الخيـام دخلـوا خلـف الخيمـة)[1]، ومِـن العـادات الاجتماعيـة والأعـراف العربيـة التـي ذكرهـا القـرآن الكريـم جعلهـم البَحـيرة والوَصيلـة والسّـائبة والحـام، وصحّـح معتقدهـم في ذلـك؛ فقـال تعـالى: ﴿مَـا جَعَـلَ اللـهُ مِـن بَحِيـرَةٍ وَلاَ سَـآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَـةٍ وَلاَ حَـامٍ وَلَكِـنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ يَفْتَـرُونَ عَلَـى اللـهِ الْكَـذِبَ وَأَكْثَرُهُـمْ لاَ يَعْقِلُـونَ {103/5}﴾[2]، فكيـف يقـف المفسّر أمـام هـذه الآيـة دونَ أن يعـرف الخلفيّة الاجتماعيـة لهـا، ودون أنْ يعـي عـادات العـرب في تعاملهـم مـع هـذه الأشـياء؛ البحـيرة والوصيلـة والسـائبة والحـام.

وقـد أخـرج البخـاري في صحيحـه عـن سـعيد بـن المسـيّب قـال: (البحـيرة التـي يمنـع درها للطواغيـت فـلا يحلبهـا أحـدٌ مـن النـاس، والسّـائبة التـي كانـوا يسـيّبونها لآلهتهـم فـلا يحمـل عليهـا شيء، قـال: وقـال أبـو هريـرة: قـال رسـول اللـه ﷺ: «رأيـتُ عمـر بـن عامـر الخزاعـي يجـرّ قصبـه في النـار؛ كان أوّل مَن سـيّب السـوائب»، والوصيلـة الناقـةُ البِكـر تبكـر في أول نتـاج الإبـل بأنثـى، ثـمّ تثنّـي بأنثـى، وكانـوا يسـيّبونهم لطواغيتهـم، إنْ وصلـت إحداهـما بالأنثـى ليـس بينهـما ذكـر، والحـام فحـل يـضرب الـضراب المعـدودة فـإن أكمـل ضرا بـه ودعـوه للطواغيـت وأعفـوه مِـن الحمْـل؛ فلـم يُحمـل عليـه شيء، وسـمّوه الحامـي)[3].

---

(1) التحرير والتنوير: 1/ 197، وانظر لباب النقول: 86، 87.

(2) المائدة: 103.

(3) صحيح البخاري، 3-1297ومسلم 4-2194.

ولـولا وقـوف المفـسّر عـلى هـذه العـادات والتقاليـد العربيـة التـي نـزل فيهـا القـرآن الكريـم لمـا فهِـم الفهْـم المطلـوب.

وقـد عنـي بجمـع عـادات العـرب وتقاليدهـم كثـيرٌ مـن العلـماء، وتوجّهـت همّتهـم إلى تسـجيل وبحـث جوانـب مِـن حيـاة العـرب الاجتماعيـة، وألّفـوا فيهـا كتبًـا مسـتقلّة، (ومـن هـذه الكتـب الميـسّر والقـداح لأبي محمـد عبـد اللـه بـن مسـلم بـن قتيبـة، مـن رجـال القـرن الثالـث، وقـد حقّقـه الأسـتاذ محـي الديـن الخطيـب، ونـشر في القاهـرة سـنة 1342هـ؛ ومنهـا كتـاب أيْمـان العـرب لأبي إسـحاق إبراهيـم بـن عبـد اللـه البصرمـي، مـن رجـال القـرن الرابـع، وقـد حقّقـه الأسـتاذ محـي الديـن الخطيـب كذلـك؛ ومنهـا كتـاب أديـان العـرب، الأصنـام، القـداح، الكهـان، والجـن، ومـا كانـت الجاهليـة تفعلـه ويوافـق حكـم الإسـلام، وأسـواق العـرب، ومعظـم هـذه الكتـب ذكرهـا ابـنُ النديـم في الفهرسـت) [1]. ودراسـة هـذا الجانـب مـن جوانـب الخلفيّـة الاجتماعيـة التـي نـزل فيهـا القـرآن الكريـم مـن الأهميـة بمـكانٍ لإدراك مرامـي القـرآن الكريـم، ومقاصـده، ووسـائله؛ فمعالجـة هـذه الجوانـب والعـادات، ودراسـةُ المفـسّر لهـا، وإلمامـه بهـا؛ تفتـح لـه أبوابًـا مـن الفهـم، ومـدارك متعـدّدة مـن المعـارف التـي تمثّـل شـيئًا مهـمًّا ذا بـال مـن الخلفيـة الاجتماعيـة، التـي تعـين عـلى فهْـم القـرآن الكريـم، ومعرفـة أخبـار العـرب كذلـك،

---

(1) انظر: بحوث في أصول التفسير، للأستاذ الشيخ محمد الصباغ، صـ 187، 188، بتصرف وترتيب.

ولأمرٍ ما كانت الدراسات الاستشراقية تُعنى برصد العادات والتقاليد، والأخبار، والمعارف- صغيرها وكبيرها- للأمّة التي تريد أن تغزوها؛ فإنّ هذه الدراسات تمثل جانبًا من جوانب الشخصية المَعنية، والتي يراد فهمُها، وقد ذكر الطاهر بن عاشور- رحمه الله- شيئًا من ذلك في مقدّماته للتفسير، وأنكر على مَن عدّ معرفة أخبار العرب شيئًا من اللّغو؛ فقال: «وأمّا أخبار العرب فهي مِن جُملة أدبهم، وإنّما خصصتها بالذّكر؛ تنبيهًا لمَن يتوهّم أن الاشتغال بها من اللّغو، فهي يُستعان بها على فهْم ما أوجزه القرآن في سوقها؛ لأنّ القرآن إنّما يذكر القصص والأخبارَ للموعظة والاعتبار، لا لأنْ يتحادث الناس بها في الأسْمار؛ فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت إليه الآيات من دقائق المعاني، فنحْو قوله تعالى:﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ {4/85} ﴾[2]، يتوقف على معرفة أخبار العرب[3] فمعرفة أخبار العرب تتيح للمفسّر وقارئ القرآن الكريم أن يتصوّر تلك الحياة الاجتماعية، التي نزل القرآن الكريم فيها، يخاطب العرب يأمرهم، وينهاهم، ويرشدهم، مقرًّا لبعض معارفهم وعاداتهم، ومقوّمًا لبعضها الآخر، والشيخ محمد عبده- رحمه الله-، وهو

(1) النحل: من الآية: 92.

(2) البروج: من الآية: 4 .

(3) التحرير والتنوير: ج 1صـ 25.

يتناول الحديث عن مراتب التّفسير، يذكر أن أعلى مَراتب التفسير لا تتمّ إلّا بأمورٍ ومقوّمات؛ منها: (معرفة المفسّر بما كان عليه الناس في عصر النبوة، من العرب وغيرهم؛ لأنّ القرآن ينادي بأنّ الناس كلّهم كانوا في شقاء وضلال، وأنّ النبي ﷺ بُعث لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفْهم المفسّر ما قيمته الآيات مِن عوائدهم على وجه الحقيقة، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم، وما كانوا عليه؟ هل يكتفي مِن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد، بأن يقولوا- تقليدًا لغيرهم-: إنّ الناس كانوا على باطل، وإنّ القرآن دحض أباطيلهم في الجُملة.. كلا.. لقد روي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: «إنّما تنقض عُرى الإسلام عروة، عروة، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية»، والمراد مِن أنه نشأ في الإسلام، ولم يعرف حالَ الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيرًا لأحوال البشر، ومخرجًا لهم من الظلمات إلى النور، ومَن جهلَ هذا يظنّ أنّ الإسلام أمرٌ عادي)[1]، فلا يتمّ فهْم عظمة هذا الدين، ولا يفْهم كتابه المبين إلّا بهذه الخلفيّة الاجتماعية التي تعطي للمفسّر تصوّرًا صادقًا عن حال الناس، وعاداتهم، وطبائعهم وقتَ نزول القرآن، وسحب هذه الخلفية إلى العصور الأخرى، والشرائع التالية؛ حتى يكون الفهْم فهمًا سديدًا بعيدًا عن الانحراف أو الخطأ.

(1) انظر المنار: ج1 صـ21 بتصرف يسير.

## القاعدةُ السّابعة

## معرفةُ علْم أحوال البشر

يُقصد بعلم أحوال البشر: العلمُ الذي يتناول طبائع الناس عامّة، وأطوارهم، وأدوارهم، واخْتلافهم؛ فإنّه يعرض للخالف ما عرض للسالف، ويمضي على اللاحق ما مضى على السابق، والتاريخ- كما يقولون- يُعيد نفسه، والسعيدُ مَن وعظ بغيره، والشقيّ مَن وعظ بنفسه.

والمُتتبّع لآيات القرآن الكريم يجدُ أنه يُعنى بذكر قصص السابقين، ويصوّر أسباب بقائهم أو فنائهم، وعوامل قوتهم أو ضعفهم، ووقوف المفسّر على هذه المعرفة يُعطيه قدرةً على الوصول إلى مَكنون القرآن الكريم، وإذا كانت القاعدة السابقة تُعنى بدراسة البيئة الاجتماعية، والخلفية الحياتيّة للعرب، وهُم مَن نزل فيهم القرآن الكريم؛ فإنّ هذه القاعدة تُعنى بدراسة أحوال الإنسان بصفةٍ عامّة، وذلك يتيح للمفسّر أنْ يصل إلى المعنى القرآني بوضوح وجلاء، وقد تناول الأستاذ «محمد عبده» هذا في حديثه عن الأمور التي لا يتمّ الوصول إلى أعلى مراتب التفسير إلّا بها، فذكر أنّ من ذلك «علم أحوال البشر؛ ذلك أنّ الله تعالى أنزل هذا الكتاب، وجعله آخرَ الكتب، وبيّن فيه ما لم يبيّنه في غيره، بيَّن فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم، والسّننَ الإلهية في البشر، قصّ علينا أحسن القصص، عن الأمم وسيرها الموافقة لسننِ مَن قبلها، فلا بدّ للناظر في هذا الكتاب مِن النظر في أحوال البشر؛ في أطْوارهم،

وأدوارهـم، واختـلاف أحوالهـم، مـن قـوّة وضعـف، وعـزّ وذلّ، وعلـم وجهـل، وإيمـان وكفر.

.. ويقـول الأسـتاذ الإمـام- رحمـه اللـه-: أنـا لا أعقـل كيـف يمكـن لأحـدٍ أن يفسّر قولـه تعـالى: ﴿ كَانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَـثَ اللـهُ النَّبِيِّيـنَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنذِرِيـنَ ﴾[1]، وهـو لا يعـرف أحـوال البـشر، وكيـف اتّحـدوا؟! وكيـف تفرّقـوا؟ ومـا معنـى الوحـدة التـي كانـوا عليهـا؟ وهـل كانـت نافعـة أو ضـارة؟ ومـاذا كان مِـن آثـار بعثـة النبيّـين فيهـم؟.. لقـد أجْمـلَ القـرآن الـكلام عـن الأمـم وعـن السّـنن الإلهيـة، وعـن آياتـه في السـماوات والأرض، وفي الآفـاق والأنفـس، وهـو إجـمال صـادرٌ عمّـن أحـاط بـكلّ شيء علـمًا، وأمرنـا بالنظـر والتفكّـر، والسـير في الأرض؛ لتفهّـم إجمالـه بالتفصيـل، الـذي يزيدنـا ارتقـاءً وكـمالًا، ولـو اكْتفينـا مـن علـم الكـون بنظـرةٍ في ظاهـره؛ لكُنّـا كمَـن يعتـبر الكتـاب بلـون جلـده لا بمـا حَـواه مـن علـمٍ وحكمـة) [2].

بهـذا الوضـوح والجَـلاء بـيّن الأسـتاذ الإمـام- رحمـه اللـه- مـدى أهميـة دراسـة أحـوال النـاس، وأدوارهـم، ومنشـئ حياتهـم؛ حتـى تعطـى صـورةً صادقـة عـن القـرآن، الـذي نـزل لصلاحهـم، وكشـفِ أدوائهـم، وعظـة النـاس عـن خلاقهـم، ولا شـكّ أن إدراك المفـسّر لهـذه المعطيـات يوسّـع مداركـه، ويقـوّي نظـره إلى الكتـاب، ويجعـل أخـذَه أخـذًا عاقـلًا، مبنيًّـا عـلى أسـس ونواميـس.

---

(1) البقرة: 213.

(2) المنار: 1/ 20،21.

## القاعدةُ الثّامنة

## معرفةُ مَعْهود الخطاب القرآني

نـزل القـرآن الكريـم بلسـان العـرب، تحـدّث بحديثهـم، وعالـج قضاياهـم، وعـبرَّ بلغتهـم عـلى عهـد اللـه تعـالى في إنـزال الكتـب وإرسـال الرسـل، ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن رَّسُـولٍ إِلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّـنَ لَهُـمْ فَيُضِـلُّ اللـّـهُ مَـن يَشَـاء وَيَهْـدِي مَـن يَشَـاء وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـمُ {4/14} ﴾، وتميّـز القـرآن في خطابـه وبيانه، وإرشـاده وبلاغته بتراكيبَ معينـة، وعبـارات خاصّـة تتبّعهـا العلـماء قديمًـا وحديثًـا، ووقـوف المفـسّر عـلى هـذه التعبـيرات يوقِفُـه عـلى فهْـم دقيـق لمَا يعـرض له من آيـاتٍ بيّنـات، وقد وقـف الطاهر بـن عاشـور عـلى هـذه القاعـدة وذكرهـا في المقدّمـة العـاشرة مـن مقدّماتـه التـي قـدّم بهـا لتفسـيره، فقـال: «يحـقّ عـلى المفـسّر أن يتعـرّف عـادات القـرآن، مـن نظـمٍ وكلمـة، وقـد تعـرّض بعـض السـلف لـشيء منهـا، فعَـنِ ابـن عبـاس: كلّ كأس في القرآن فالمـرادُ بهـا الخمـر، وذكـر ذلـك الطـبري[1] أيضًـا عـن الضحـاك، وفي صحيـح البخـاري[2] في تفسـير سـورة الأنفـال، قـال ابـن عُيينـة: مـا سـمّى اللـه مطـرًا في القـرآن إلّا عذابًـا،

---

(1) انظر جامع البيان، عند تفسيره لقوله تعالى: بكأس من معين، ج23 ص53، ط: دار الفكر، بيروت، 1405.

(2) ج 4، ص 1704.

وتسمّيه العرب الغيث، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾[1]، وعن ابن عباس أنّ كلّ ما جاء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فالمقصودُ به أهل مكّة المشركون، وقال الجاحظ في البيان[2]، وفي القرآن معانٍ لا تكادُ تفترق مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرّهبة، والمهاجرين والأنصار، والجنّ والإنس؛ قلت: والنّفع والضّر، والسماء والأرض، وذكر صاحبُ الكشاف، وفخرُ الدين الرازي أنّ من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيدٍ إلّا أعقبه بوعْد، وما جاء بنذارةٍ إلّا أعقبها ببشارة، ويكون ذلك بأسلوبِ الاستطراد والاعتراض؛ لمناسبة التّضاد، وفي الكشاف في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ {50/37} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ {51/37}﴾[3]، جيء به ماضيًا على عادة الله في أخباره[4]، وقال فخرُ الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ ﴾[5]، وعادة الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعًا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتْبعها إمّا بالإلهيّات وإمّا بشرح أحوال الأنْبياء في أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكدًا لما يقدّم ذكره من التكاليف والشرائع[6]، ثمّ مضى ابن عاشور- رحمه الله- يؤكّد

(1) الشورى: 28.

(2) ج1، ص27، ط دار صعب، بيروت، ط أولى 1968م، ت/ فوزي عطوي.

(3) الصافات: 50، 51.

(4) الكشاف: 1/ 1061.

(5) المائدة: من الآية 109.

(6) انظر التحرير والتنوير: جـ1 صـ 124، 125.

على هذه القاعدة من قواعد فهْم القرآن الكريم، واستيعاب مراده، فإنه تتبّع بنفسه هذا النمط مِن تعبيرات القرآن، فوجدَه يمضي على طريقة مُفردة، ومِن هذه التعبيرات التي حصرها ابن عاشور: (أن كلمة هؤلاء إذا لم يجئ بعدها عطفُ بيان تبيّن المشار إليهم؛ فإنّها يراد بها المشركون مِن أهل مكة، كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ {89/6}﴾[2]، ومن أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظِ قال، دون حرف عطف إلّا إذا انتقل من محاورةٍ إلى أخرى)[3]، ولا شكّ أنّ الوقوف على أسلوب القرآن الكريم، وانفراداته يوقف المفسّر والقارئ على خبرٍ عظيم، ويضع يده على مفاتيح الفهْم ووسائل الإدراك.

(1) الزخرف: 29.

(2) الأنعام: 89.

(3) التحرير والتنوير: 1/ 125.

## القاعدةُ التّاسعة

## معرفةُ قواعد اللّغة العربية

نـزل القـرآنُ الكريـم بلسـان العـرب، وتميّـز بخصائـص تلـك اللغـة، التـي أعـلى اللـه تعـالى قدْرَهـا، وخلّـد في العالمـين ذكرهـا، بـل أنـزل كتابَـه الخالـد بهـا. مِـن هنـا، كان فهْـم اللّغـة وقواعدهـا ومعرفـة أسـاليبها بابًـا مـن أبـواب فهْـم القـرآن ومعرفـةِ مقاصـده؛ فـإنّ العربيـة تميّـزت بتراكيـبَ معينـةٍ عـن باقـي لغـات اللّسـان، لا تخفـى عـلى صاحـب النظـرة العجْـلى، فضـلاً عـن المتأنّيـة. مِـن هنـا، عنـي علماؤنـا بالتأكيـد عـلى أنّ فهْـم اللغـة سـبيلٌ إلى فهْـم القـرآن، فـيرى ابـن جريـر الطـبري- رحمــه اللــه- أنّ اللّغــة وفهمَهــا شرطٌ لفهْــم القــرآن الكريــم، ولا يمكــن أن يفْهــم بالتقصـير فيهـا، فيقـول وهـو يتحـدّث عـن أهميـة اللّغـة: «وأوّل مـا نبـدأ بـه مِـن القيـل في ذلـك، الإبانـةُ عـن الأسـباب التـي البدايـة بهـا أولى، وتقديمهـا عـلى مـا عداهـا أحـرى، وذلـك البيـان عـمّا في آيِ القـرآن مـن المعـاني التـي مـن قبلهـا يدخـل اللّبـس عـلى مَـن لم يعـان برياضـة العلـوم العربيـة، ولم تسـتحكمْ معرفتـه بتصاريـف وجــوه منطــق الألســن السّــليقة الطبيعيــة».[1]، فتعلّــم العربيــة أمــرٌ لا بــدّ منــه لفهْـم المـراد مِـن القـرآن الكريـم، إذْ كيـف يفهـم خطابًـا مَـن لم يـدرك خصائـص اللغــة، ولم يتعــرّف مزايــا بيانــه؟ وعــلى قــدر تفــاوت النــاس في فهْــم خصائــص العربيـة تتفـاوت فهومُهـم وعلومهـم بالقـرآن الكريـم. ولا يقصـد بالعربيـة مفـردات ألفــاظ فحســب، أو التراكيــب فقــط، أو البيــان والمعــاني والأســاليب، إنّمــا يعنــي

(1) جامع البيان:1/ من المقدمة.

جميعَ ذلك وغيره، ممّا له صلةٌ في بيان القرآن، وإيضاح مراده، «إنّ القرآن كلام عربي، فكانت قواعدُ العربية طريقًا لفهْم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلطُ وسوءُ الفهْم لمَن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللّسان العربي، وهي: مَتن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومِن وراء ذلك استعمال العرب المتّبع في أساليبهم، في خطبهم، وأشعارهم، وتراكيب بُلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل، والاسْتئناس للتّفسير من أفهام أهل اللّسان- أنفسهم- لمعاني آياتٍ غير واضحة الدّلالة عند المولّدين) [1] وقد أكّد الإمام الزمخشري على ضرورة علمي المعاني والبيان لفهم القرآن؛ فقال في مقدّمة تفسيره: (علم التفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه، وإطالة النظر فيه، كلُّ ذي علم؛ فالفقيهُ وإن برزَ على الأقْران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلّم وإن بزّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظُ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوْعَظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللّغوي وإن يملك اللغات بقوّةِ لحْييه؛ لا يتصدّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطّرائق، ولا يغوص على شيء مِن تلك الحقائق إلّا رجلٌ قد برعَ في علميْن مختصّين بالقرآن، وهما: علما البيان والمعاني) [2]، وكذلك صاحب المفتاح يؤكّد على أهميّة علم المعاني والبيان لفهم القرآن بقوله: لا أعلم في باب التفسير- بعدَ

(1) التحرير والتنوير: 1/ 18.

(2) الكشاف من المقدمة: ج1 15و16، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان بدون. وانظر التحرير والتنوير:1/ 19.

علـم الأصـول- أقـرأ عـلى المـرء لمـراد اللـه تعـالى مِـن علمَـيِ المعـاني والبيـان، ولا أعـونُ عـلى تعاطـي تأويـل متشـابهاته، ولا أنفـعُ في درْك لطائـف نكتِـهِ وأسراره، ولا أكشـفُ للقنـاع عـن وجْـه إعجـازه، ولكـم آيـة مـن آيـات القـرآن تراهـا قـد ضِيمَـت حقَّهـا، واستُلِبت ماءهـا ورونقَهـا، أن وقعـت إلى مَـن ليسـوا مِـن أهـل هـذا العلـم، فأخـذوا بهـا في مآخـذَ مَـردودة وحملوهـا عـلى محامـل غـير مقصـودة[1]، ولا تجـد مصلحًـا وضـع القـرآنَ نصـبَ عينيـه في إصلاحـه إلّا وربـطَ ذلـك بكـوْن اللغـة هـي وسـيلة فهمِـه للقـرآن، وإدراك مراميـه، ولعـلّ في كلام الأسـتاذ «محمـد عبـده» مـا يؤيـد ذلـك إذْ يؤكّـد- رحمـه اللـه- ذلـك بقولـه: (بقـاء الإسـلام لا يكـون إلّا بفهـم القـرآن فهـمًا صحيحًـا، ولا بقـاء لفهْـم القـرآن إلّا بحيـاة اللّغـة العربيـة، فـإن كان باقيًـا في بعـض الأعاجـم فإنمـا بقـاؤه بوجـود بعـض العلـماء العارفـين مـن التفسـير مـا يكفـي لـردّ الشـبهات عـن القـرآن عندهـم، وببقـاء ثقـة العامـة بهـم، فَهُـم ربّمـا يقولونـه تقليـدًا لهـم فيـه أو بعـدم عـروض الشّـبه لهـم مـن دعـاة الأديـان الأخـرى، مـع تأثـير الوراثـة والتقليـد، مِـن قبيـل مـا يسـمّى في العلـم الطبيعـي بحركـة الاسـتمرار؛ ولهـذا اتّفـق علـماءُ الإسـلام مـن العـرب والعجـم عـلى حفـظ اللغـة العربيـة ونشرهـا، وكان العلـم والديـن في أوْج القـوّة بحيـاة اللغـة العربيـة)[2]، وخلاصـة القـول: إنّ معرفـة العربيـة ومُفرداتهـا وأسـاليبها يُعـين القـارئ والمفـسّر عـلى الفهْـم الصحيـح، ويوضـح أمامـه الرؤيـة التـي يتغيّاهـا مـن القـرآن الكريـم.

---

(1) انظر التحرير والتنوير: 1/ 20.

(2) انظر تفسير المنار: جـ1، صـ 24، 25، وانظر جـ1/ 20.

## القاعدةُ العاشرة

## معرفةُ موضوع القرآن ومقاصدِه الأساسية

إنّ معرفـة أهـداف القـرآن الكريـم ومقاصـده تقـصر الطريـقَ عـلى الباحثـين عــن المعرفــة القرآنيــة، والفهــم القــرآني؛ ذلــك لأنّ إدراك الهــدف مِــن أي شيء سـبيلٌ يوصّـل إلى إدراك المُـراد منـه. (إنّنـا قبـل أنْ ننظـر في كتـابٍ مـا عـن مسـألة مِـن مسـائل العلـم تشـغل بالنـا ننظـر في موضـوع الكتـاب، فمثـلاً لـو أن إنسـانًا أراد أن يبحــث في قاعــدةٍ نحْويــة لرجــع إلى كتــابٍ مِــن كتــب النحــو، ولا نتصــوّر أن يأخــذ كتابًــا في علــم النفــس ويبحــث فيــه عــن تلــك القاعــدة النحويــة.. ولــو فعــل ذلــك لــكان جاهــلاً، وموضــوع القــرآن: هــو الإنســان والحيــاة الإنســانية. ولقــد عالــج القــرآن الكريــم قضيــة الإنســان، وحــدّد أســاس نجاحــه وســعادته، وحـدّد أسـباب حزنـه وشـقائه، ويفهـم مـن آياتـه البيّنـات المعجـزات أنّ التصـوّرات البشريــة التــي وضعهــا الإنســان عــن نفســه وعــن الكــون والحيــاة والخالــق مدفوعًــا بدراســته الســطحيّة، ومتأثــرًا بالأهــواء الظاهــرة والخفيّــة؛ تصــورات باطلــة مُهلكــة، وكذلــك فــإنّ المواقــف التــي اتّخذهــا عــلى أســاس تلــك التصــورات باطلــة أيضًــا ومُهلكــة)[1]، ويرفــض الأســتاذ ســيد قطــب- بحــقّ- أن يكــون القــرآن

---

(1) بحوث في أصول التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ط المكتب الإسلامي، ط الأولى 1408هـ 1988، صـ 236، 237.

كتـابَ علـم فلـكي أو كيـماوي وطبّـي كـما يحـاول أن يصـوّره البعـض، ويؤكّـد عـلى أن موضـوع القـرآن الأسـاسي ومجالَـه الرئيـس هـو: (النفـس الإنسـانية والحيـاة الإنسـانية، وأنّ وظيفتـه أنْ ينشـئ تصـوّرًا عامًّـا للوجـود وارتباطـه بخالقـه، ولوضـع الإنسـان في هـذا الوجـود وارتباطـه بربّـه أن يقيـم عـلى أسـاس هـذا التصـوّر نظامًـا للحيـاة يسـمح للإنسـان أن يسـتخدم كلّ طاقاتـه...، إنّ مـادّة القـرآن التـي يعمـل فيها هـي الإنسـان: ذاتـه، وتصـوّره، واعتقـاده، ومشـاعره، ومفهوماتـه، وسـلوكه، وأعمالـه، وروابطـه، وعلاقاتـه....، إنّ القـرآن كتـابٌ كامـل في موضوعـه، وموضوعُـه أضخـم مـن تلـك العلـوم كلهـا لأنّـه هـو الإنسـان ذاتـه، الـذي يكشـف هـذه المعلومـات، وينتفـع بهـا، والبحـث والتجريـب والتطبيـق مـن خـواصّ العقـل في الإنسـان، والقـرآن يعالـج بنـاء المجتمـع الإنسـاني الـذي يسـمح لهـذا الإنسـان بـأنْ يسـتخدم هـذه الطاقـات المَذخـورة فيـه بعـد أن يوجـد الإنسـان السـليم التصـوّر والتفكـيرِ والشـعور، ويوجـد المجتمـع الـذي يسـمح لـه بالنشـاط)[1]. إنّ إدراك المفسّر والقـارئ لهـذه الكليّـات الجامعـة، والقضايـا والأهـداف الواضحـة لموضـوع القـرآن؛ يجعـل نظـره ينصـبّ عـلى الموضـوع الأسـاس الـذي نـزلَ لـه القـرآن الكريـم، وهـو الإنسـان والإنسـانية، ذلـك الـذي أراد اللـه تعـالى لـه أن يكـون خليفتَـه في أرضـه؛ فخلقَـه بيـده، ونفـخَ فيـه مـن روحـه، وأسـجدَ لـه ملائكتـه، وأرسـل لـه رسـله، وأنـزل لـه كتبـه، يتعهّـده حينًـا بعـد حـين حتـى يخـرجَ مِـن الظلـمات إلى النـور، ومِـن الضـلال إلى الهـدى.

(1) ()انظر بحوث في أصول التفسير، 235، 236

وكـما أنّ فهْـم موضـوع القـرآن مُعـين عـلى فهْـم القـرآن الكريـم، فكذلـك فهْـم المقاصـد الأساسـية التـي يتغيّاهـا القـرآن الكريـم يُعـين القـارئ والمفـسّر عـلى إدراك خلفيّـات هـذه المقاصـد والكليـات التـي نـزل القـرآن ليرسّـخها مِـن خـلال أسـاليبه المتعـدّدة، وطرائقـه المتنوعـة، مـن: القصـص، إلى الوعـظ والإرشـاد، والتوحيـد، إلى الأمـر أو النهـي (فمِـن الـلازم لمَـن يريـد أن يحسـن الفهْـم عـن اللـه- عـزّ وجـل- ورسـوله ﷺ وألّا يكتفـي بالوقـوفِ عنـد حرفيّـة النصـوص، ويحمـد عـلى ظواهرهـا ولا يتأمّـل فيـما وراء أحكامهـا مِـن عِلـل، ومـا تهـدف إليـه مِـن مقاصـد، ومـا سـعى إلى تحقيقـه مـن مصالـح ماديـةٍ أو معنويـة، فرديـة أو اجتماعيـة، دنيويـة أو أخرويّـة.. إنّ مهمـة الراسـخين في العلـم أن يبحثـوا عـن مقاصـد الـشرع، ومـن خـلال النصـوص، بعـد أن يتجوّلـوا في آفاقهـا، ويغوصـوا في أعماقهـا، ويربطـوا جزئيّاتهـا بكلياتهـا، ويـردّوا فروعهـا إلى أصولهـا، ويشـدّد أحكامهـا بعضهـا ببعـض، بحيـث تنسّـق وتنظـم انتظـامَ الحبّـات في عقدهـا، مـع اليقـين بـأنّ الشريعـة الغـرّاء لا تفـرق بـين متسـاويين، كـما لا تسـوّي بـين مختلفـين)[1]، وإدراك هـذه المقاصـد القرآنيـة الجـادّة يعصـم العقـلَ الـذي يتنـاول الآيـات مـن أنْ يشـطّ بهـا في التفسـير، أو ينحُـوَ بهـا إلى غـيْر مسـارها. مِـن هنـا عنـي عـددٌ غـيرُ قليـل مـن الأئمـة المبرّزيـن، والعلـماء المعدوديـن بذكـر العلاقـة بـين صحّـة الفهْـم القـرآني وإدراك المقاصـد الأساسـية للقـرآن، ومِـن هـؤلاء: الطاهـر بـن عاشـور- رحمـه اللـه- إذْ

(1) انظر المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، للدكتور يوسف القرضاوي، ص229، 230، بتصرف يسير، ط: مؤسسة الرسالة، ط أولى 1414هـ 1993م.

تنـاول ذلـك في مقدّمـات تفسـيره «التحريـر والتنويـر»، فذكـر أنّ: (المقصـد الأعـلى مـن القـرآن هـو صـلاح الأحـوال الفرديـة والاجتماعيـة والعمرانيـة، فالصـلاحُ الفـردي يعتمـد عـلى تهذيـب النفـس، وتزكيتهـا، ورأي الأمـر فيـه صـلاح الاعتقـاد؛ لأن الاعتقاد مصـدر الآداب والتفكـير، ثـمّ صـلاح الشريعـة الخاصـة، وهـي العبـادات الظاهـرة كالصـلاة، والباطنـة كالتخلّـق بـترك الحسـد والحقـد والكـبر؛ وأمّـا الصـلاح الجماعـي فيحصـل أولًا مـن الصـلاح الفـردي، إذِ الأفـراد أجـزاءُ المجتمـع، ولا يصلـح الـكلّ إلّا بصـلاح أجزائـه، ومـن شيء زائـدٍ عـلى ذلـك وهـو ضبـطُ تـصرّف النـاس بعضهـم مـع بعـض، عـلى وجـهٍ يعصمهـم مِـن مُزاحمـة الشـهوات ومواثبـة القـوى النفسـانيّة، وهـذا هـو علـمُ المعامـلات ويعـبرّ عنـه عنـد الحكـماء بالسياسـة المدنيّـة؛ وأمّـا الصّلاح العمـراني فهـو أوسـعُ مِـن ذلـك، إذْ هـو حفـظ نظـام العـالم الإسـلامي، وضبـط تـصرّف الجماعـات والأقاليـم، بعضهـم مـع بعـض، عـلى وجـهٍ يحفـظ مصالـحَ الجميع، ويرعـى المصالـح الكليّـة الإسلامية، ويحفـظُ المصالـح العامّـة عنـد معارضـة المصلحـة الخاصّـة، ويسـمّى هـذا بعلـم العمـران، وعلـم الاجتـماع)[1]، ثـمّ عـدّد الشـيخ- رحمـه اللـه- عـددًا مِـن المقاصـد الكليّـة، والأهـداف الأساسـية التـي حـرص القـرآن عـلى إبرازهـا، والتـي لا يمكـن لمفـسّر أو قـارئ أن يسـتوعب معـاني القـرآن بقـدر طاقتـه البشريـة إلّا إذا مـرّ بهـا؛ فقـال: «إنّ هـذه المقاصـد الأساسـية التـي جـاء القـرآن لبيانهـا، ويجـب عـلى المسـلم الأخـذ بهـا ثمانيـة، وهـي:

(1) التحرير والتنوير: 1/ 38.

الأول: إصلاح في الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سببٍ لإصلاح في الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهّر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك.... وما بينهما. وقد أشار إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ {101/11} ﴾[1] فأسند لآلهتهم زيادةَ تَتْبيبهم، وليس هو مَن فعل الآلهة، ولكنه مِن آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ {4/68} ﴾[2]..، وهذا المَقصد قدْ فهمه عامّة العرب، بله خاصّة الصحابة، وقال أبو فراس الهذلي مشيرًا إلى ما دخل على العرب مِن أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدار يا أمّ مالك ... ولكن أحاطت بالرّقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئًا فاستراح العواذل

أرادَ بإحاطة السلاسل بالرّقاب أحكامَ الإسلام، والشاهد في قوله:

وعاد الفتى كالكهل.

الثّالث: التشريع، وهو الأحكام خاصّة وعامّة.

والرّابع: سياسة الأمّة، وهو بابٌ عظيم في القرآن، القصد منه صلاحُ الأمّة وحفظ نظامها، فالإشارة إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ

(1) هود: 101.

(2) القلم: 4.

اللــهِ جَمِيعًـا وَلاَ تَفَرَّقُـواْ وَاذْكُـرُواْ نِعْمَـةَ اللــهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُـمْ أَعْـدَاء فَأَلَّـفَ بَيْـنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـم بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًـا وَكُنتُـمْ عَلَـىَ شَـفَا حُفْـرَةٍ مِّـنَ النَّـارِ فَأَنقَذَكُـم مِّنهَـا﴾[1].

والخامــس: القصــص، وأخبــار الأمــم الســالفة للتــأسّي بصالــح أحوالهــم ﴿نَحْــنُ نَقُـصُّ عَلَيْـكَ أَحْسَـنَ الْقَصَـصِ بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هَـذَا الْقُـرْآنَ وَإِن كُنـتَ مِـن قَبْلِـهِ لَمِـنَ الْغَافِلِيــنَ {3/12} ﴾[2].

والسّــادس: التعليــم بمــا يناســب حالــةَ عــصر المخاطبــين، ومــا يؤهّلهــم إلى تلقــي الشّريعــة ونشرهــا، وذلــك علــم الشرائــع، وعلــم الأخبــار، وكان ذلــك مبلــغ علــم مخالطــي العــرب مِــن أهــل الكتــاب، وقــد زادَ القــرآن الكريــم عــلى ذلــك تعليــم حكــمة ميــزان العقــول، وصحّــة الاســتدلال في أفانــين مُجادلاتــه للضّالــين، وفي دعوتــه إلى النظــر، ثــمّ نــوّه بشــأن الحكمــة فقــال: ﴿ يُـؤتِي الْحِكْمَـةَ مَـن يَشَـاء وَمَـن يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَـيْرًا كَثِـيرًا وَمَـا يَذَّكَّـرُ إِلاَّ أُوْلُـواْ الأَلْبَـابِ ﴾[3]، وهــذا أوســعُ بــابٍ انْبجســت منــه عيــون المعــارف، وانفتحــت بــه عيــون الأميّــين إلى العلــم، وقــد لحــق بــه التّنبيــه المتكــرّر عــلى فائــدة العلــم، وذلــك شيء لم يطــرق أســماعَ العــرب مِــن قبْــل، إنّمــا قصــارى علومهــم أمــورٌ غــير بيّنــة، وكان حكماؤهــم أفــرادًا[4].

---

(1) آل عمران: 103.

(2) يوسف: 3.

(3) البقرة: 269.

(4) التحرير والتنوير: 41/1 .

## القاعدةُ الحاديةُ عشرة

## فهْمُ حقائق الألفاظ المُفردة

لا ينكر إنسانٌ أنّ القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، واستخدم ألفاظهم وتعبيراتهم، وصوّر- أدقّ تصوير وأرقاه- ما يريده من حِكم وآداب، وقيمٍ ومُثُل. كما أنّه من المُسلّم لغة أنّ اللّغة- أي لغة- تشبهُ الكائن الحي في نموّه وتطوّره، وارتقائه من طوْر إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة، وهذا كلام واسع الفصول، طويل الأكمام والذّيول، يدركه مَن ينظر في كتب اللّغة وفقهها معرفةً وثقافة، ويعايشه مَن يرصد تلك الظاهرة حركةً وواقعًا، وللألفاظ المفردة دلالاتٌ قد تختلف، تقترب أو تبتعد مِن عصر إلى عصر، ومِن زمان إلى زمان، وحتى يفهم المفسّر فهمًا صحيحًا صائبًا؛ عليه أن يدرك زمنَ نزول هذه الألفاظ المُفردة، ودلالاتها الآنية، واستخداماتها في عصر النزول. فدلالةُ المفردة لا تكون على طول المدى دلالةً واحدة، لا تتغيّر ولا تتطوّر، وإنما تتغير شيئًا فشيئًا من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة في نفس العصر وذات الزمان، ووصولُ المتعامل مع القرآن إلى المعنى الدّلالي الأصيل الذي نزلت المفردة القرآنية عليه وقتَ نزولها؛ يُعينه على الفهْم الصّائب والإدراك السليم، وقد عني بهذه الفكرة ونظَّرَ لها الأستاذ أمين الخولي- رحمه الله- وهو رائدُ المدرسة البيانيّة، التي نسجت على مِنواله، ومِن أبرز أفرادها د. عائشة

عبدالرحمـن، بنـت الشـاطئ، والدكتـور شـكري عيّـاد، وقـد حاولـت بنـتُ الشـاطئ تطبيـقَ هـذه النظريـة في دراسـاتها شـيئًا، وحـاول الدكتـور شـكري- صبـورًا- أنْ يسـلكَ هـذا المنهـج في أطروحتـه عـن يـوم الدّيـن والحسـاب. والمدرسـةُ البيانيـة في مُجمـل منهجهـا حاولـت أن تـدرس القـرآن عـبْر مراحـل، منهـا؛ دراسـة المفـردة في زمـان نزولهـا، ثـمّ دراسـتها في طـول القـرآن كلّـه، ثـمّ دراسـتها في السّـياق القـرآني حتـى يكـون فهْـم المفـسّر أقـرب مـا يكـون إلى مقصـود القـرآن[1]. وقـد عـرض الأسـتاذ الإمـام «محمـد عبـده» رحمـه اللـه، لهـذه الجزئيـة وأثرهـا في فهْـم القـرآن الكريـم، فذكـر عنـد حديثـه عـن مراتـب التّفسـير وأنها متعـدّدة؛ أن أعـلى مرتبـة مـن مراتـب التفسـير لا تتـمّ إلّا بأمـور، منهـا: (فهْـم حقائـق الألفـاظ المُفـردة التـي أوْدعهـا القـرآن، بحيـث يحقّـق للمفـسّر ذلـك مِـن اسـتعمالات أهـل اللّغـة، غـير مكتـفٍ بقـول فـلان وفهْـم فـلان؛ فـإنّ كثـيرًا مـن الألفـاظ كانـت تسـتعمل في زمَـن النـزول لمَعـان، ثـمّ غلبـت عـلى غيرهـا بعـد ذلـك بزمـن قريـب أو بعيـد، مِـن ذلـك لفـظ التأويـل اشـتهر بمعنـى التفسـير مطلقًـا، أو عـلى وجْـه الخصـوص، ولكنـه جـاء في القـرآن بمعـانٍ أخـرى، كقولـه تعـالى: ﴿ هَـلْ يَنظُـرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَـهُ يَـوْمَ يَأْتِـي تَأْوِيلُـهُ يَقُـولُ الَّذِيـنَ نَسُـوهُ مِـن قَبْـلُ قَـدْ جَـاءتْ رُسُـلُ رَبِّنَـا بِالْحَـقِّ ﴾[2] فـما هـذا

(1) انظر ذلك بتوسّع في كتابنا: موازنة بين منهجي المدرسة الإصلاحية والمدرسة البيانية في التفسير وعلوم القرآن، رسالة دكتوراة، مخطوطة في كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر.

(2) الأعراف: من الآية 53.

التأويـل؟ يجـب عـلى مَـن يريـد الفهْـمَ الصحيـح أن يتتبّـع الاصطلاحـات التـي حدثـت في الملّـة ليفـرّق بينهـا وبـين مـا ورد في الكتـاب؛ فكثـيرًا مـا يفـسّر المفـسّرون كلـمات القـرآن بالاصْطلاحـات التـي حدثـتْ في الملّـة بعـد القـرون الأولى، فعـلى المدقّـق أن يفـسّر القـرآن بحسـب المعـاني التـي كانـت مُسـتعملة في عـصر نزولـه، والأحسـن أن يفهـمَ اللّفـظ مـن القـرآن نفسـه بـأن يجمـع مـا تكـرّر في مواضـع منـه وينظـر فيـه، فربّمـا اسـتعمل بمعـانٍ مختلفـة كلفـظ الهدايـة وغـيره.... ويحقّـق كيـف يتّفـق معنـاه مـع جُملـةِ معنـى الآيـة، فيعـرف المعنـى المطلـوب مِـن بـين معانيـه، وقـد قالـوا: إنّ القـرآن يفـسر بعضـه بعضًـا، وإنّ أفضـل قرينـة تُعـين عـلى حقيقـة معنـى اللّفـظ موافقتُـه لمـا سـيق لـه مـن القـول، واتفاقـه مـع جملـة المعنـى، وائتلافـه مـع القصـد الـذي جـاء لـه الكتـاب بجملتـه)[1]، ولا يخفـى أنّ هـذا الـكلام في غايـة البيـان عـن ضرورةِ دراسـة المُفـردة في عـصر نزولهـا واسـتخدامها الأوّل، ودراسـتها مـن خـلال دورانهـا في القـرآن الكريـم، فقـد تـردُ المفـردةُ في مواطـن متعـدّدة بمعـان متعـدّدة كـما سـبق في كلام الشـيخ- رحمـه اللـه- وكـما هـو واقـعٌ مُلاحَـظ، فلفظـة: «خـير» مثـلاً الـواردة في أكـثرَ مـن موطـنٍ في القـرآن، وردت في كلّ موطـن بمعنـى، فقـد وردت في سـورة البقـرة في قولـه تعـالى: ﴿كُتِـبَ عَلَيْكُـمْ إِذَا حَضَـرَ أَحَدَكُـمُ الْمَـوْتُ إِن تَـرَكَ خَيْـرًا الْوَصِيَّـةُ لِلْوَالِدَيْـنِ وَالأقْرَبِيـنَ بِالْمَعْـرُوفِ

(1) المنار: 19،20/1 .

حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ {180/2} ﴾[1]، وهي تعني ما يتركه المتوفَّى من مال ومتاع ونحوه، ووردت في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ {24/28} ﴾[2] بمعنى الطّعام والشراب، ووردت في سورة ص في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ {32/38} ﴾[3]، بمعنى الخيل التي شغل بها سليمان- عليه السلام- عن الصلاة، وفي سورة العاديات في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ {8/100} ﴾[4]، بمعنى المال، وهكذا تتعدّد المعاني المرادَة من اللّفظة القرآنية حسبَ السياق الذي تردُ فيه، ووعيُ المفسر والقارئ والمتعامل مع القرآن بهذه القاعدة يوفّر عليه الكثيرَ من البعد عن المراد، ويقرّب له غرضَه المقصود وهدفه المنشود.

---

(1) البقرة: من الآية 180 .

(2) القصص: 24.

(3) ص: 32.

(4) العاديات: 8.

# المبحثُ الثالث

# عقباتٌ في طريق الفهْم

وإذا كنّا قد عرّجنا على بعض القواعد التي تُعين على الفهْم السليم لمضامين القرآن الكريم، وهي كلّ من كثر، وغيضٌ من فيض، ممّا يحتاج إلى دراسة متّصلة موسّعة؛ فإنّ هناك عقبات كئود، تقف حجرَ عثرة أمام الإنسان في طريق فهْم القرآن الكريم، ومِن أبرز هذه العقبات ما يلي:

1 عدم التدبّر، والميلُ إلى نزعة أو مذهب:

فإنّ ذلك يقطع على الإنسان طريقَ الفهْم، ويجعله يصدر أحكامًا مُسبقة بناءً على تصوّرات خاضعة لمذهبه، أو نزعته الكامنة في عقله، ولا يتيح له الفرصة ليتعرّف على مراد الله تعالى مِن كلامه، بناءَ على ما لديه من ميلٍ عاطفي، تبعه ميلٌ فكري إلى قناعة معينة، ورؤية مُسبقة، فيبادر إلى المصادرة على الفهْم السليم والإدراك الصحيح، ولو كان قد قدِمَ إلى القرآن الكريم خالي الذّهن إلّا من وسائل الفهْم الصحيح، وألقى عقله لهذا الدستور الإلهي الخالد، يشكّله كيف شاء؛ لانْتفع أيّما نفع، وفهمه أيّما فهْم، لكنه قدِمَ إلى القرآن الكريم ولديه رؤى سابقة، وفهومٌ يقدّمها بين يدي الفهْم الصحيح للقرآن الكريم، بل قد يلوي مرادَ الآية إلى غير سبيلها، ويحوّل مجراها إلى غير طريقها

حتى توافق هواه، وتأتي مُطابقةً لفهمه السّقيم، وقد ذكر صاحب «التحرير والتنوير» أنّ مَن له ميلٌ إلى نزعة، أو مذهب، أو علة، (يتأوّل القرآن على وفق رأيه، ويصرفُه عن المراد، ويرغمُه على تحمّل ما لا يساعد عليه المعنى المُتعارف، فيجرّ شهادة القرآن لتعزيز رأيه، ويمنعه عن فهْم القرآن حقّ الفهْم ما قيد عقله من التعصّب عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه، حتى إن لمع له بارقُ حقّ وبدا له معنى يباين مذهبَه حملَ عليه شيطان التعصّب حَملة، وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف مُعتقدك، كمَن يعتقد من الاستواء على العرش التّمكّن والاستقرار، فإنْ خطر له أن يعي قولَه تعالى ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ [الحشر: 23] أنّه المتنزّه عن كلّ صفات المحدثات، حجبَه تقليده عن أن يتقرّر ذلك في نفسه، ولو تقرّر لتوصّل فهمُه فيه إلى كشف معنى ثانٍ أو ثالث، ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه، وجمودُ الطبع على الظاهر مانعٌ من التوصّل اللغوي)(1)، وقد وصف الغزالي هذا الذي حال ميلُه إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهْم بأنّه: (شخص قيّده معتقدُه عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفًا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة، وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف مُعتقد آبائك، فيرى أنّ ذلك غرور الشيطان، فيتباعد منه، ويحترز عن

(1) انظر التحرير والتنوير: جـ1 صـ31.

مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إنّ العلم حجاب، وأرادوا بالعلم: العقائد التي استمرّ عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلمات جدليّة قرّرها المتعصبون للمذاهب، وألقوها إليهم، أمّا العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجابًا وهو منتهى الطلب!؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعًا)[1].

2 النظرةُ الجزئية للقرآن الكريم:

إنّ النظرة الجزئية لآيات القرآن الكريم أو التصوّر الموضعي تصوّر ناقص يمثل عقبةً من عقبات الفهْم القرآني؛ ذلك أنّ القرآن الكريم صورة متشابكة الأجزاء مُتلاحمة الأعضاء لا يغني جزءٌ منها عن جزء آخر، بل يكمل بعضها بعضًا، وتؤدي في النهاية إلى فكرةٍ واضحة وقيمةٍ مُكتملة يخدم بعضها بعضًا، وإطلالةٌ سريعة على شريحةٍ مُعينة من الآيات الكريمة تدلّك بجلاء كيف تناول القرآن الكريم حديثًا عن القراءة والخلق وطغيان الإنسان في تلاءم تامّ، وانسجام كامل؛ (فالقرآن غذاءٌ روحي مُكتمل العناصر، وكما أتناول على المائدة مجموعةً من السّكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد، أو في أغذية واحدة في وجبة واحدة، فكذلك يتقدّم لنا القرآن برسالةِ حياةٍ شاملة، لا تدع جزءًا منه إلّا ويمتدّ إليه، ويجري

(1) إحياء علوم الدين للغزالي: جـ1 صـ 398، دار المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط أولى 1424هـ.

الوحـي الإلهـي خـلال هـذا النّسـق القـرآني كـما تجـري الدّمـاء داخـل العـروق لتشـمل الـرأس والقـدم، الجهـاز يـدور في كلّ شيء ليعطـي الحيـاة كلّ شيء.. إنّ الرؤيـة القرآنيـة لا يمكـن أن تكـون إلّا حضـارة كاملـة.. ومـن المسـتحيل أنْ أنظـر إلى القـرآن النظـرةَ الجزئيـة التـي تجعلنـي أعيـشُ في جانـب وأنـسى الجانـبَ الآخـر، كما لا يمكـن أن يتكـوّن الـدّم مـن كريّـات حمـراء فقـط، أو بيضـاء فقـط، أو بعـض العنـاصر المعدنيّـة فقـط التـي تسـير في الـدم ولا يكـون دمًـا إلّا بهـا.. إنّ النظـرة الشـاملة للقـرآن هـي النظـرة الصحيّـة للدراسـات القرآنيـة، ولا يمكـن الرضـا بنظـرةٍ جزئيـة؛ لأنّهـا عندمـا سـارت في الفكـر الإسـلامي نشـأ عنهـا مـا يشـبهُ الجسـم المشـلول في بعـض أجزائـه، أو في بعـض أجهزتـه، مـع بقـاء أجهـزة أخـرى حيّـة، إنّـه لا يسـتطيع أن يـؤدي وظيفتـه مـا دامَ الشّـلل أو الخطـر يجمّـد بعـض الأجهـزة، أو بعـض الأعضـاء)[1]، فاجتـزاء النّـص يـؤدي إلى تشـويه القضيـة الكاملـة، وإذا كان الإنسـان لا يسـتطيع أن يقـول عـن اليـد وحدهـا إنهـا إنسـان، أو القـدم وحدهـا إنهـا إنسـان، فكذلـك لا يسـتطيع أنْ يـدرك الفهْـم الصحيـح للقـرآن الكريـم إلّا بالنظـرة الكاملـة التـي تتعـدّى التجـزيء في الحُكـم، وتترقـى مـن النظـرة الموضعيّـة إلى النّظـرة الموضوعيـة.

(1) كيـف نتعامـل مـع القـرآن، محمـد الغـزالي، صـ 71، ط: المعهـد العالمـي للفكر الإسـلامي، ط أولى 1412هـ 1992م، بتصرف يسـير.

## مِن آثار النظرةِ الجزئية للقرآن الكريم

مِن هنا، فإنّ النظرة الجزئية تكون آثارُها وخيمةً على الفكْر الإسلامي، فهي تفيد من الآيات ما لا تدلّ عليه الآيات، وتنسب إلى القرآن أحكامًا ليست مِن أحكام القرآن، وما ذلك إلّا لأنّها نظرت نظرةً موضعية، ولم تطلق نظرَها في الموضوع كلّه، فوقفت عند حدٍّ لا يكتمل به المُراد، وذلك أوقع الفكرَ الإسلامي قديمًا وحديثًا في مسائل شائكة، بل أوقع بعضهم أحيانًا في فهومٍ تناقض تمامًا مرادَ القرآن الكريم، خذ مثلاً فهْم بعضهم لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، التي أخذ منها أنّ العمل مخلوق لله تعالى «ونسينا أنّ هذا الكلام لو صحّ ما كان عبدة الأصنام مسئولين؛ لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله، وشركُهم ووثنيتهم مخلوقةً لله، فما عليهم مِن ذنب، لكن نحن أخذنا ظاهر الآيةِ وقطعناها من سياقها من قبْل ومِن بعْد، وجعلناها هكذا دليلاً لرأي باطل..؛ إنّها آفة التجزيء، وبعضهم بلغتْ به النظرة الجزئية أن يأخذ مِن صدر سورة براءة أنّ الإسلام دينُ هجوم، وإذا سألتهم عن الدليل يقولون: قولُه تعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾[2] ويقف، مِن ثَمّ لا يكمل الآية؛ لأنّ إكمال الآية ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾، فأنت هنا تردّ الهجوم الشامل بدفاع شامل، وليس هناك ما يستدعي هذا، بل سمّيت آية السيف

(1) الصافات: 96.

(2) التوبة: من الآية 36.

بذلك مِن المستثنى قبل الاستثناء في قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {3/9} ﴾[1]، وانتهى الأمر، وأخذ منها البراءة المطلقة، أمّا الاستثناء الذي جاء ووضّح حدود البراءةِ ومعناها، والمجال الذي لا يجوز أن نتعدّاه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {4/9} ﴾[2]، نسيناها اعتبرنا المستثنى منه أصلاً، وأصبح القتال عامًّا، دونَ وعي للمعنى نفسه، وما أوقع الناس في مثل هذا الفهْم المشوّه للآية الكريمة إلّا النظرة الجزئية التي أضاعت المعنى، وبتَرَت الفهْم، حتى أدّى إلى غير المراد منه، وإذا نظرنا إلى آيةٍ أخرى في نفس السورة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ {6/9} ﴾[3]،وعرفنا أنّ ما ذكر قبْلها من آيات «أمرٌ عامّ في جميع الأحوال، وفي كلّ الأشخاص، ذكَرَ- تعالى- أنّ المصلحة إذا اقتضت تغريب بعض جاز، بل وجب ذلك فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ طلب منك أن تجيره وتمنَعه من الضرر لأجْل

(1) التوبة: 3.

(2) التوبة: 4.

(3) التوبة: 6.

أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ﴾، ثمّ إنْ أسلم فذلك، وإلّا فأبلغه مأمنه، أي: المحمل الذي يأمنُ فيه، والسبب في ذلك أنّ الكفار قوم لا يعلمون، فربّما كان استمرارهم على كفْرهم لجهلٍ منْهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمرَ الله رسوله، وأمّته أسوته في الأحكام، أن يجيروا مَن طلب أن يسمع كلام الله»[1]؛ ذلك أنّ كمال إنسانية الإنسان أن يخلّي نفسه حتى يفكر فيما يصلحه ويفيده، مِن هنا أسقط الله التكليفَ عن المُكره حالَ الإكراه؛ لأنه فقد- عندئذ- مؤهلاً من مؤهلات التكليف، ولم يعدْ أهلاً له..، مِن هنا نرى أنّ (شمول النظرة أمرٌ لا بدّ منه، لكي تعطي الأحكام الصحيحة من الناحية الفقهية التشريعية، فإذا أدركنا أنّ الإنسان مخلوق سويٌّ، له سمع وبصر، وله فؤاد، ولا بدّ أن تستغلّ هذه الوظائف جميعًا في تصْحيح إنسانيّته، والعيش بها، أدركنا أنّه لا يمكن أن يتمّ هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكانٍ آخر مع إباحة الإكْراه، فكيف تكره أحدًا، إنّك بهذا تلغي إنسانيته، وما فائدة الحكم الشرعي إذا فُقدَ الإنسانُ الذي يطبّق الحكم الشرعي)[2]، هذا وقدْ دعا القرآن الكريم المسلمين إلى أنْ يأخذوا الإسلام- والقرآن أول مصادره- كاملاً غير منقوص، ويدخلوا فيه كلّه؛ فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ

(1) تيسير الكريم المنّان في تفسير كلام الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ط: الرسالة، ط أولى 142هـ/ 200م، صـ 329

(2) كيف نتعامل مع القرآن: 73، 74، بتصرف يسير.

تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {208/2} ﴾[1]، أي: ادْخلوا جميعكم في الإسلام، أو ادخلوا في الإسلام جميعِه، ولا تجتزئوه، كما فعلت الأممُ السابقة، وقد رصد الله تعالى سببًا من أسباب البَوار والهلاك للأمم الماضية بأنّهم جعلوا القرآن عِضين، فقال تعالى: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {90/15} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ {91/15} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ {92/15} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {93/15} ﴾[2]، أي جعلوه أجزاءً أخذوا بعضه ممّا يوافق هواهم، وتركوا ما لا يروقهم ولا يقبلونه، ونعى -سبحانه وتعالى- عليهم مسلَكهم هذا الذي يجتزئون به الوحي، فيأخذون بعضه ويتركون بعضه، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {91/6} ﴾[3].

وقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ {15/5} ﴾[4].

---

(1) البقرة: 208.

(2) الحجر: 90- 93.

(3) الأنعام: 91.

(4) المائدة: 15.

إنّ القـرآن الكريـم وحـدةٌ لا تتجـزّأ، وتعاليمـه وأحكامـه مترابطـة متكاملـة، بـين بعضهـا وبعـض مـا يشـبه الوحـدةَ العضويّـة بـين أعضـاء الجسـم الواحـد، فبعضهـا يؤثّـر في بعـض، ولا يجـوز أن يفصـل جـزء أو أكـثر عـنْ سـائر الأجـزاء، فالعقيـدة تغـذّي العبـادة، والعبـادة تغـذي الأخـلاق، وكلّها تغـذي الجانـبَ العمـلي والتشريعـي في الحيـاة، (ولا يسـوغ في منطـق الإيمـان ولا منطـق العقـل أنْ يقـرأ المسـلم قـولَ اللـه تعـالى في سـورة البقـرة: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَـامُ كَمَـا كُتِـبَ عَلَـى الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ {183/2} ﴾[1]، فيقـول: سـمعنا وأطعنـا، ولكـن إذا قـرأ في السـورة نفسـها قولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الْقِصَـاصُ فِـي الْقَتْلَـى﴾[2] قـال: سـمعنا وعصينـا؛ لأنّ الآيـة الأولى في مجـال العبـادات، والأخـرى في مجـال العقوبـات، ومعنـى هـذا أنّ الإنسـان أصبـح معقبًـا لحكـم اللـه تعـالى يأخـذ منـه ويـدعُ بهـواه وحـدَه، واللـه لا معقـب لحكمـه..، إنّ مَـن فتـح المصحـف وقـرأ سـورة الفاتحـة أو أوائـل البقـرة؛ وجـدَ أول مـا يطالعـه وصـفَ المتّقـين المهتديـن بكتـاب اللـه بأنّهـم: ﴿الَّذِيـنَ يُقِيمُـونَ الصَّـلاَةَ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُـمْ يُنفِقُـونَ {3/8} ﴾[3]. فقـرَنَ بـين الجانـب الاعتقـادي: (الإيمـان بالغيـب)، والجانـب الشـعائري: (إقامـة الصـلاة)، والجانـب الاقتصـادي: (الإنفـاق ممّا

(1) البقرة: 183.

(2) البقرة: 178.

(3) الأنفال: 3.

رزقـه اللـه)، وهـذا هـو منهـج القـرآن الربـط بـين جوانـبِ الحيـاة كلّهـا بربـاط لا ينْفصـم؛ لأنّهـا هكـذا في واقـع الحيـاة، وإذا كانـت الحيـاة كلّهـا مترابطـة متلازمـة، فـلا بـدّ أن تكـون الأحـكام التـي تـشرع لهـا كلّهـا مترابطـة متلازمـة كذلـك، وذلـك هـو حكـمُ اللـه، ﴿ وَمَـنْ أَحْسَـنُ مِـنَ اللـهِ حُكْمًـا لِّقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ {50/5} ﴾[1] [2].

3 الوقوفُ عند حُسن التلاوة وجَمال الصوت:

والوقـوفُ عنـد ترنيـم الصـوت وحـدَه والعكـوف عـلى بهائـه وروائـه دونَ النظـر في مرامـي الآيـات الكريمـة مـن عقبـات الفهْـم، وحجـاب بـين الإنسـان وإدراك رؤيـة القـرآن الكريـم للأشـياء، وإنّ آفـة الأمّـة المسـلمة- ونحـن مِـن أفرادهـا- أنهـا شـغلت حينًـا مـن الدّهـر- ومـا تـزال تشـغَل- بجَـمال الصـوت، وحسـن الأداءِ عـلى حسـاب الفهْـم السـليم والإدراك القويـم، ومـا تـراه في واقـع النـاس، كلّهـم أو بعضهـم، مـن وقوفهـم عنـد حـدّ الحروف والمطالـع، والوقوف والفواصـل؛ لعَلامةُ مـرضٍ سرَى ويسري في الأوصـال، لقـد كان الصحابـة وسـلفُنا الصالـح يقـف الفـردُ منهـم عنـد الحـدود والحـروف، وقـد يـردّد الآيـة مـرارًا، ويعيدهـا تكـرارًا، حتـى تعمـل في النفـس عملَهـا، وتـؤدي دورَهـا، كـما تـؤدي الأدوية الفاعلـة في الأمـراض المتوطّنة عملهـا، اجتثاثًا وإزالة وهدمًـا وبنـاءً، فتغـيّرت أحوالهـم، وتبدّلـت أعرافهـم عـلى مُـراد القـرآن الكريـم، يؤكّـد

(1) المائدة: 5.

(2) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة: صـ29، 33، د. يوسف القرضاوي، بتصرف واختيار.

ابـن قدامـة- رحمـه اللـه- تجنّـب الإنسـان لهـذا المانـع مِـن موانـع الفهْـم، وتلـك العقبـة التـي تقـف دونَ الوصـول إلى مـراد اللـه تعـالى فيقـول: (وليتخـلّ التـالي عـن موانـع الفهْـم، مثـل أن يخيّـل إليـه أنّـه مـا حقـق تـلاوة الحـرف، ولا أخرجـه مـن خرجـه، فيـصرف همّتـه عـن فهْـم المعنـى)[1]، ومـا تـراه مـن واقـع المسـلمين مِـن الحـرص عـلى إقامـة الحـروف وعـدم الوقـوف عـلى المعـاني، ليـس إلّا صارفًـا مـن صـوارف الفهْـم، ومانعًـا مـن موانـع التدبّـر الحقيـق، والإدراك العميـق لمرامـي القـرآن الكريـم. قـد تسـمع قارئًـا يقـرأ آيـات العـذاب والعقـاب، وتـرى مَـن يتمايـل حولـه طربًـا، ولـو فهْـم هـذا السّـامعُ المعنـى المقصـود لبـكى أو لتبـاكى، بـدلَ أن يذهـب مـع حـلاوة الصّـوت عـلى حسـاب طـلاوة المعنـى، ولا شـكّ أنّ القـراءة الصحيحـة القويمـة طريـقٌ إلى الفهْـم الصحيـح، وبـابٌ مـن أبوابـه، وقـد حـثّ النبـي ﷺ أصحابـه قـولًا وعمـلًا عـلى تجويـد أصواتهـم بالقـرآن، فيسـمع مِـن أبي مـوسى قراءتـه ويقـول: (لـو رأيتنـي وأنـا أسـمع قراءتـك آنفًـا. فيقـول رضـي اللـه عنـه وأرضـاه: لـو أنّي أعلـم يـا رسـول اللـه لحبّرتـه لـك تحبـيرًا)[2]، ويطلـب مـن «أبيّ» أن يقـرأ عليـه فيقـول: «أقـرأ عليـك وعليـك أنـزل؟! يقـول ﷺ: إنّي أحـبّ أن أسْـمعه مـن غـيري)[3]، ويرشـد ﷺ إلى ذلـك فيقـول: «زيّنـوا القـرآن

---

(1) مختصر مناهج القاصدين، صـ 67، 68.

(2) البيهقي، في شعب الإيمان: ج 2 ص 525، وقال: أخرجاه في الصحيحين دون قول أبي موسى، وانظر مسلم: ج 1 ص 546.

(3) صحيح مسلم:ج 1 ص 551، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر برقم 801.

بأصواتكـم»[1]، والقـرآن الكريـم نفسُـه قـد حـثّ عـلى قـراءة القـرآن حـقّ القـراءة، وتلاوتـه حـقّ تلاوتـه، فأثنـى عـلى الذيـن يتلونـه حـقّ تلاوتـه وأعـلى شـأنهم، فقـال تعـالى:﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللـهِ وَأَقَامُـوا الصَّـلاَةَ وَأَنفَقُـوا مِمَّـا رَزَقْنَاهُـمْ سِـرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُـونَ تِجَـارَةً لَّـن تَبُـورَ {29/35} لِيُوَفِّيَهُـمْ أُجُورَهُـمْ وَيَزِيدَهُـم مِّـن فَضْلِـهِ إِنَّـهُ غَفُـورٌ شَـكُورٌ {30/35}﴾[2]، وكانـت أولُ كلمـة نزلـت مـن القـرآن الكريـم هـي:﴿ اقْـرَأْ ﴾[3]؛ لأنّ القـراءة هـي مفتـاح الفهـم، وتجويـد هـذه القـراءة مُعـين مـن مُعيناتـه، وسـبيلٌ مـن سبله الموصّلـة إليـه، لكـنّ الملاحـظ أننـا تمهّرنـا في قـراءة القـرآن ووقفنـا عنـد حدّ الحـروف والألفـاظ، ولم نسـبر أغوارَهـا بالصـورة المُـرادة، والغـرض المقصـود، فخلطنـا بـين الوسـيلة والغايـة، والأسـباب والمقاصـد، وكأنّ القـراءة صـارت هدفًـا في ذاتهـا، وغايـة في نفسـها، حتّـى سرت إلينـا علـلُ الأمـم السـابقة وأمراضهـم، يكون بـين أيديهم الكتـاب ولا يعلمـون منـه إلّا أمـاني، كـما قـال تعـالى: ﴿ وَمِنْهُـمْ أُمِّيُّـونَ لاَ يَعْلَمُـونَ الْكِتَـابَ إِلاَّ أَمَـانِيَّ وَإِنْ هُـمْ إِلاَّ يَظُنُّـونَ {78/2}﴾[4]، (يقـول ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- عـن ابـن عبـاس وقتـادة في قولـه: ﴿ وَمِنْهُـمْ أُمِّيُّـونَ ﴾ أي: غـير عارفـين بمعـاني الكتاب،

---

(1) صحيح البخاري:ج 6 ص 2742، برقم4635، باب قول النبي: الماهر بالقرآن.

(2) فاطر: 29.

(3) العلق: من الآية: 1.

(4) البقرة: 78.

يعلمونها حفظًا بلا فهْم،لا يدرون ما فيها[1]..، وقوله «إِلَّا أَمَانِيَّ» أي: تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب، إنّما يقتصرون على ما يتلى عليهم». «والأميّة العقلية هذه تسود الأمّة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبّر القرآن والتعامل مع الأحداث، واتّخاذ المواقف، واكتشاف سننِ الله في الأنفس والآفاق، وحُسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنّفاذ من منطوق النّصّ وظاهره إلى مقصده ومرماه، والتدخّل حين نعلم السنة وأنّها تتكرّر ولا تتبدّل فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدَرٍ أحبّ إلى الله، أو نفرّ من قدَرِ الله إلى قدر الله كما قال عمر بن الخطابرضي الله عنه، يقول ابنُ القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدرٍ أحبّ إلى الله». إنّها الأميّة العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم، على الرغم من تقدّم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل[2]، وهذه الأميّة العقلية التي صارت حجابًا للفهْم، وحاجزًا عن الوعي والإدراك لمضامين القرآن الكريم ليست وليدة عصرٍ من العصور، بل وليدة عدمِ الترتيب بين الغاية والوسيلة، فالقراءةُ التي هي وسيلة الفهْم أصبحت في حدّ ذاتها هي الغاية والمبتغى، وصرْنا- إلّا مَن رحم الله- مبلغ علمنا أن نجود الحروف،

(1) انظر مجموع الفتاوى: ج 17 ص 434.

(2) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 14، 15، من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة.

ونحقّـق صفاتهـا ومخارجهـا، فـكان الاهتـمامُ بالشـكل عـلى حسـاب المضمـون، فقـد يعيـبُ الإنسـان أيّ عيـب إذا رقّـق المفخّـم، أو فخّـم المرقّـق، أو لحَـنَ جليًّـا أو خفيًّـا، ولا يعـاب إذا لم يـدرك بديهيّـات القضايـا في القـرآن الكريـم، أو المعـاني الظاهـرة المتبـادَرَة لأنّ طريقـة التعلّـم غرسـت فينـا هـذا الجانـب، ولا يقـول أحـدٌ بـأنّ جـودة الأداء ليسـت غرضًـا ولا هدفًـا، لكـنّ هنـاك فـرقٌ بـين غـرض هـو مقدّمـة لغـيره، وبدايـة لسـواه؛ وغـرضٍ هـو المقصـود الأسـمى للقـرآن الكريـم، وقـد ذكـر ابـن قدامـة: أنّ المبالغـة في أداء الحـروف صـارفٌ مـن صـوارف الفهـم، ومانـعٌ مـن موانعـه، بـل تلبيـسٌ مـن تلبيـس الشـيطان بقولـه: (وليتخـلّ التـالي عـن موانـع الفهْـم مثـل أن يخيّـل لـه الشـيطان أنّـه مـا حقّـق تـلاوة الحـرف، ولا أخرجَـه مـن مخرجـه، فيـصرف همّتـه عـن فهْـم المعنـى)[1] وقـد وصـف حمـزة، وهـو أحـدُ أئمّــة القـرّاء المعروفـين بالقـراءة بأنّهـا كالبيـاض فـإنْ زادت أصبحـت برصًـا، وإنْ قلّـت أصبحـت سـمرة)[2]. إنّ علاقـة المسـلمين بالقـرآن علاقـةٌ تسـتوجب السـؤال والدهشــة، وتسـترعي النظـر، وتثـير الانتبـاه، فالأمّـة التـي نـزل فيهـا﴿ اقْـرَأْ﴾ لا تـكاد تقـرأ، والأمّـة التـي نـزل بهـا ﴿ وَأَنزَلْنَـا الْحَدِيـدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَافِـعُ لِلنَّـاسِ ﴾[3] لا تـكاد تعـرف عـن الحديـد شـيئًا ذا بـالٍ، وأمّـة (انظـروا) لا تـكاد

(1) مختصر مناهج القاصدين:صـ 67، 68.

(2) معرفة القراء الكبار، للإمام الذهبي، صـ69، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى 1417هـ 1997.

(3) الحديد: 25.

تنظر، وأمّة (قل سيروا في الأرض) لا تكاد تسير، وإن سارت فهو سيرٌ للمُتع الفانية والشّهوات الذاهبة، إنّه من عدّة قرون ودعوة القرآن مجمّدة، ورسالةُ الإسلام كنهر جفّ مجراه، أو بريق فقَدَ سناه، والأمّة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملاً لا يجوز السكوتُ عليه. كان الجاهليون الأقدمون يصِمون آذانَهم عن سماعه، ويتواصون بالشغب على مجالسه، ويعلنون بتكذيب صاحبه، حتى شكا صاحبُ الرسالة إلى ربّه هذا الكنود: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا {30/25} ﴾[1]، أمّا المسلمون المتأخّرون فَهُم يسمعون، وقد يتأوّهون أو يسكتون، ولكنّ العقول مخدّرَة، والحواس مبعثرة، ومسالكُ الأفراد والجماعات في وادٍ آخر، وكأنّها تنادي من بعيد، والأمّة المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة، والحضارة التي يصنعها لا تجدُ مَن يصوّر معالمها بإتقان، ولا مَن يعبّد طريقها بذكاء، ولا مَن يفتح لها دكانًا صغيرًا في سوق امتلأ بلافتاتٍ خدّاعة لسلعٍ ما تساوي شيئًا، أو مذاهب باطلة، بالتعبير الصريح.. هكذا يتصرّف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانْتموا إليها!![2] إنّ هذا لمِن البلاء المبين، الذي يجعل الحليم يحار، أمّة لها موروثٌ ثقافي، ومددٌ سماوي، كفيلٌ بأن يتبوءوا بها سُدّة الدنيا ومقدّمة العالم، يكون حالها أن تصير في عِداد النائمين الغائبين، وليست الأزمة أزمة

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 25، 26.

(2) كيف نفهم القرآن، ص 25.

منهج؛ فالمنهج موجودٌ والمصدر محفوظ، وذلك من فضل الله على المسلمين، ولكنّ الأزمة الحقيقية في التعامل والفهم، والوعي والإدراك.

وقد أخذ جانبُ الشكل اهتمامًا أكثرَ مِن حجمه في فكر المسلمين وعقولهم، وامتدّ ذلك في فراغ المضمون، لقد فصلت الأمّة بين القراءة والفهم، وأصبح المسلمُ يقرأ القرآن ليجد البركة، وكأنّ تدبّر ألفاظه دونَ حسّ بمعانيها ووعيٍ لمغازيها يفيد أو هو المقصود.. إنّ القرآن الكريم يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارات، هذه قدرته، وهذه طاقته، فأمّا أن يفتح المصباح فلا يرى أحدٌ النور؛ لأنّ الأبصار مغلقة، فالعيبُ عيب الأبصار التي أبتْ أن تنتفع بالنور، واللهُ تعالى يقول ﴿قَد جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ {15/5} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {16/5}﴾[1]، نحن ما اتبعنا رضوان الله ولا سبل السلام، ولا استطعنا أن نقدّم سلامًا للعالم، ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس، هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن، ولا تعرف عنه شيئًا، والسبب أنّ المسلمين أنفسَهم محجوبون عن أضواء القرآن، وفاقدُ الشيء لا يعطيه[2].

(1) المائدة: 16

(2) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 31.

والخلاصـة: أنّ القـراءة مطلوبـة وهامّـة، والتجويـد وحُسـن الأداء ضروري ومؤثّـر، لكـن يوضـع كلّ ذلـك في مكانـه ومقامـه، فـلا يمتـدّ عـلى حسـاب الفهـم، ولا نـسرف في الوقـوف عنـد الشـكل عـلى حسـاب المضمـون، حتـى لا تتحـوّل وسـائل الفهْـم إلى موانـع، ومعيناتُـه إلى صوارفـه.

4 وضعُ النصوص في غير مواضعها:

ومِـن الأمـور الصارفـة للعقـل عـن الفهْـم والتدبّـر والتـي تجعـل بـين العقـل وفهْـم القـرآن سـدًّا منيعًـا أن توضـع النّصـوص في غـير موضعهـا، فيسـتدلّ بهـا عـلى غـير قضاياهـا، ويقـدّم بهـا لنتائـج غـير نتائجهـا، إمّـا لعلّـة في نفسـه أو خلـل في تركيبـه الفكـري والثقـافي، وعـدم تهيئتـه بـأدوات الفهْـم الصحيـح والفكـر السـليم، فتجـده مثـلاً يسـتخدم النّصـوص في غـير بيئتهـا الطبيعيـة، ومِـن أول مَـن صنـع ذلـك الخـوارج (حيـث رفضـوا مبـدأ التحكيـم في الخـلاف بـين عـلي رضـي اللـه عنـه ومَـن معـه، ومعاويـة ومَـن معـه، وحجتهـم التـي أعلنوهـا وتمسّـكوا بهـا قـول اللـه تعـالى: ﴿إِنِ الْحُكْـمُ إِلاَّ للـهِ ﴾[1] ، وعقّـب أمـير المؤمنـين عـلي- رضي اللـه عنـه- عـلى حجاجهـم هـذا بكلمتـه الحكيمـة البليغـة التـي ذهبـت مثـلاً في التاريـخ إذ قـال: «كلمـة حـقّ يُـراد بهـا باطـل»، فالكلمـة في ذاتهـا حـقّ؛ إذًا لا حكـم إلّا للـه، سـواء فسّرنـا الحكـمَ بالحكـم الكـوني، بمعنـى أنّـه لا يدبّـر هـذا الكـون ولا يتـصرّف فيـه إلّا اللـه تعـالى، أمْ فسّرنـاه بالحكـم الأمـري التشريعـي، بمعنـى أنّ

---

(1) يوسف: 40.

الآمر والناهي المشرّع الذي له حقّ الطاعة المطلقة هو الله وحده، ولكنّ هذا المعنى شيء والتحكيمُ في المنازعات شيءٌ آخر، فهذا أمرٌ قد شرعه الله تعالى وحكم به، ودلّ عليه؛ فهذا من جُملة حكمه سبحانه وتعالى[1]، ونجد أمثلة متعدّدة لهذا الفكر المعوج، الذي يأخذ نتيجة من غير مقدّماتها، ويقدّم مقدّمات لغير نتائجها، كأنْ تسمع بعضهم يقول: (إنّ القرآن نفسه سوّى بين المرأة والرجل في الميراث في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا {7/4} ﴾[2]، وينسى أنّ هذا النصيب المفروض قد وضّحه القرآن نفسه في السورة نفسها، وقد سمّى القرآنُ الكريم هذا الفعل- وهو وضع النصوص في غير مواضعها تحريفًا للكلم عن مواضعه، ونعى على أهل الكتاب هذا الصنع الشنيع، ووصفهم بأنّ الله تعالى أراد فتنتهم لسوء فعلهم، وقبح صنيعهم، ولم يردْ أن يطهر قلوبهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ

(1) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، صـ277،278.

(2) النساء: 7.

الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {41/5}﴾[1].

ومَن سار في هذا الباب أتى بالعجائب من المعاني لم يُنزل الله بها من سلطان يستدلّ بعضهم على منع تعدّد الزوجات بقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[2]، ويروّج للسياحة العصرية بأنّ القرآن أثنى على السّائحين والسائحات، كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسَهم وأموالهم بأنّهم لهم الجنة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا {5/66}﴾[4] فهل يتصوّر هذا الجوّ العاطر الطهور أن يكون المراد بالسياحة ما نشهده في عصرنا من أفواج المُنحلّين والمُنحلّات، الذين تقذف بهم الطائرات من الجو، والبواخر من البحر؛ باحثين أو باحثاتٍ عن المتعة واللّذة أينما وجدت؟»[5].

(1) المائدة: 41.

(2) النساء: 129.

(3) التوبة: 112.

(4) التحريم: 5.

(5) المرجعية العليا في الإسلام للكتاب والسنة، صـ284.

5 أن يكون همّه آخرَ السورة..

وهـذا مانـعٌ مـن موانـع الفهْـم، وعقبـةٌ مـن عقبـات الوصـول إلى المعنـى المقصـود؛ لأنّـه يكـون أكـبر شـغله، ومبلـغ علمـه، وأعظـم أملِـه؛ أنْ يختـم أو يصـلَ إلى آخـر السـورة، وقـد وردَ عـن النبـي ﷺ «أنّ الغايـة مـن العبـادة عامّـة الوصـولُ إلى معناهـا، لا الوقـوف عنـد شـكلها، «ربّ صائـم ليـس لـه مـن صيامـه إلّا الجـوع والعطـش، وربّ قائـم ليـس لـه مـن قيامـه إلّا السّـهر والتعـب»[1]. وقـد قـال تعـالى في بيـان القـراءة النافعـة: ﴿ وَقُرْآنـاً فَرَقْنَـاهُ لِتَقْـرَأَهُ عَـلَى النَّـاسِ عَـلَى مُكْـثٍ وَنَزَّلْنَـاهُ تَنزِيـلاً ﴾[2]، وأمـرَ رسـولهﷺ بالتمهّـل والتحسـين، والإجـادة في إقامـة الحـروف والحـدود، فقـال: ﴿رَتِّـلِ الْقُـرْآنَ تَرْتِيـلاً ﴾[3]، والـذي يوقـع بعـض القارئـين في هـذا المانـع أن يأخـذوا جانبًـا مـن جوانـب الآيـات والأحاديـث التـي تـدلّ عـلى فضـل القـراءة، دون أن يقرنوهـا بأخواتهـا مـمّا يـدلّ عـلى فضـل الفهْـم، وأن يكـون لهـذه القـراءة ثمـرةٌ مـن الإدراك والوعـي، أو قـد يكـون ذلـك مـن تلبيـس إبليـس؛ فقـد ذكـر ابـن الجـوزي (أنّـه قـد لبـس عـلى قـومٍ بكـثرة التـلاوة، فهْـم يهـزون هـذا مـن غـير ترتيـل ولا تثبّـت، وهـذه حالـة ليسـت محمـودة، وقـد روى

(1) سنن ابن ماجة 596/1 برقم 571، وقال صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

(2) الإسراء: 106.

(3) المزمل: 4.

جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كلّ يوم، أو في كلّ ركعة، وهذا يكون نادرًا منهم، ومَن داوم عليه فإنّه وإن كان جائزًا إلّا أنّ الترتيل والتثبّت أحبّ إلى العلماء)[1]، وليس أدلّ على ذلك مِن سيرة السّلف الصالح وموقفهم مع القرآن الكريم مِن ترْديد آيات يمرّون بها لا يجاوزونها حتى يصلوا بها إلى معاني تشبع نفوسهم، وتروي غلّتهم، ورأسُ الصالحين رسولُ الله ﷺ يقف ليلةً كاملة يردّد قولَه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {118/5} ﴾[2] «وقد قام تميم الداري ليلة بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ {21/45} ﴾[3]، وقام سعيد بن جبير ليلةً يردّد هذه الآية: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ {59/36} ﴾[4]، وقال بعضهم: إنّي لأفتَتِح السورة فيوقفني بعضُ ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر، وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهّمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثوابًا... وحُكي عن أبي مسلم الداراني أنّه قال: إني لأتلوا الآية فأقيم فيها أربعَ ليالٍ أو خمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها،

(1) انظر تلبيس إبليس: صـ 138.

(2) والحديث أخرجه ابن ماجة ،1/ 429، وقال الألباني: حسن، والآية: 118 من المائدة.

(3) الجاثية: 21.

(4) يس: 59.

وعـن بعـض السـلف أنـه يبقـى في سـورةٍ سـتّةَ أشـهُر يكرّرهـا ولا يفـرغ مـن التدبّـر فيهـا، وقـال بعـضُ العارفـين: لي في كلّ جمعـة ختمـة، وفي كلّ شـهر ختمـة، وفي كلّ سـنة ختمـة، ولي ختمـة منـذ ثلاثـين سـنة مـا فرغـتُ منهـا بعـد، وذلـك بحسـب درجاتـه وتعايشـه)[1] أمّـا أن تكـون القـراءة مطلبًـا في ذاتهـا، وغايـة في نفسـها فـلا؛ فعظـم الأجـر ليـس عـلى تـرداد الحـروف، وهـزّ القـرآن هـزّ الشـعر، وإنّمـا مـا وقـر في القلـب وقارنـه العمـل؛ مِـن هنـا كان حـالُ السـلف الصالـح، مـن هنـا أثّـرت التـلاوة في سـلوكهم فتغـيّرت معارفهـم، واسـتضاءت سريرتهـم، وصـحّ علمهـم وعملُهـم في الحيـاة، وهـذه غايـة القـرآن الكريـم.

6 مرضُ القلب أو عدمُ خضوعه:

مِـن أكـثر الصـوارف عـن فهْـم القـرآن الكريـم والوصـول إلى معانيـه أن يكـون القلـب- وهـو محـلّ العقـل والفهْـم والتدبّـر والوعـي غائبًـا أو مريضًـا؛ لأنّـه المزرعـة التـي ينمـو فيهـا الفهْـم، والبوتقـة التـي يكتمـلُ بهـا العلـم، وقـد وصفـه الرسـولﷺ بـأن صـلاح البـدن بصلاحـه، وفسـاده بفسـاده فقـال في الحديـث الصحيـح: «ألا وإنّ في الجسـد مُضغـة إذا صلحـت صلـحَ الجسـدُ كلّـه، وإذا فسـدت فسـد الجسـدُ كلّـه، إلَا وهـي القلـب»[2]، وقـد صـوّر القـرآن الكريـم حـالَ

(1) إحياء علوم الدين: ج 1 صـ 395، 396.

(2) صحيح البخاري، من حديث النعمان بن بشير، باب من استبرأ لعرضه ودينه، 28/1، ومسلم، باب أخذ الحلال وترك الحرام 3 /1219.

قوم سمّاعين للوحي، معايشين للنبوة، لكنهم غائبو القلب بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[1]، وقد تعهّد تعالى بصرف مرضى القلوب عنْ فهْم آياته، وتدبّر كلماته؛ فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ {146/7} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {147/7} ﴾[2].

وصرْفُ الله تعالى لهؤلاء المتكبّرين عن فهْم آيات القرآن الكريم وتدبّر عطاءاته ليس ظلماً لهؤلاء، بل هُم البادئون للبعد عن هدايات الله تعالى، وقد وصفهم الله تعالى بأنّهم إنْ رأوا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلًا، وإن رأوا سبيل الغي اتخذوه سبيلًا، وبأنّهم كذّبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين، وأنّ ذلك ليس إلّا جزاء لهم عمّا كانوا يعملون، وكذلك كلّ الآيات التي تناولت هذه الأوْصاف، مثل الختم، والطبع، والأكنة، ونحو ذلك؛ تدلّك أنهم هُم البادئون للإعراض عن هدايات السماء، وعطاءات القرآن الكريم، وقد ذكر الإمام الزركشي- رحمه الله- في برهانه أنّ القلب المريض لا يصلُ إلى فهْم مراد

(1) محمد: 16.

(2) الأعراف: 146، 147.

الله تعالى مِن كلامه، فقال: «واعلمْ أنه لا يحصل للناظر فهْم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حبّ الدنيا، أو هو مصرٌّ على ذنْب، أو غير متحقّق بالإيمان، أو ضعيف التحقّق، أو يعتمد على مفسّرٍ ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها أكثر من بعض) [1]؛ فالبدعة عندما يسرّ بها القلب- عياذًا بالله- تصدّ القلب عن الفهْم، فيكون حائلاً بينه وبين الإدراك والمعايشة، بل قد يؤدي إلى غير المراد؛ لأنّ ميزانه غير مُنضبط، وقياسَه غير سليم، وقد حدّد النبي ﷺ وصفًا لهذا القلب المعوجّ الذي تنكت فيه النّكت السوداء، فتحول بينه وبين معرفة المعروف، وإنكار المنكر بالكوزِ المُجَخّى، فيقول ﷺ:«تُعرض الفتنُ على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا فأيّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتةٌ بيضاء، وأيّما قلب أُشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، حتى تصير القلوب على قلبيْن: أبيض كأنّما فيه سراج يزهر، وكالكوز مُجخّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»[2]؛ ولذلك حرص علماؤنا على بيان خطرِ مرض القلب في الفهْم والإدراك، فقال ابنُ قدامة- وهو يعرض لهذا الأمْر الجَلل: (وليتخَلّ عن موانع الفهْم، ومِن ذلك أن يكون مصرًّا على ذنب، أو متّصفًا بكبْر، أو مُبتلى بهوًى مطاع، فإنّ ذلك سببُ ظلمة القلب وصدئه، فالقلبُ مثل

---

(1) البرهان: ج1 ص181.

(2) صحيح مسلم: ج1 صـ129 ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

المـرآة، والشّـهواتُ مثـل الصـدأ، ومعـاني القـرآن مثـل الصـورة التـي تـتراءى في المـرآة، والرياضـة للقلـب بإماطـة الشّـهوات مثـل جـلاء المـرآة)[1]، وقـد يكـون القلـب سـليمًا لكنـه غائـبٌ عـمّا يقـرأ، لاهٍ عـمّا يتلـو، فـلا ينتفـع بتـلاوةٍ ولا يفيـد مـن قـراءة، ويسـتوي في ذلـك مـع مريـضِ القلـب في هـذه الصّفـة، وقـد قسّـم ابـنُ القيـم- رحمـه اللـه تعـالى- القلـوب، وذكـر أنّ غيـاب القلـب عـمّا يعايـن صـارفٌ مـن صـوارف الفهْم، فقـال: (النـاس ثلاثـة: رجـلٌ قلبـه ميـت، ورجـلٌ لـه قلـب حـي لكنّـه مشـغول ليـس بحـاضر، فهـذا لـه الذكـرى، والثالـثُ رجـلٌ حـي القلـب مُسـتعدّ تُليـت عليـه الآيـات فأصغـى بسـمعِه، وألقـى السـمع، وأحـضر القلـب، ولم يشـغله بغـير فهْـم مـا يسـمع، فهـو شـاهدُ القلـب، فهـذا هـو الـذي ينتفـع بالآيـات)[2] وقـد عـدّ - رحمـه اللـه تعـالى - اشـتغالَ القلـب مـن موانـع الفهْـم، فيحـدث أيضًـا عـن المؤثـر والمانـع والـشّرط في الفهْـم بقولـه: (فـإذا حصـل المؤثـرُ وهـو القـرآن، والمحـلّ القابـل وهـو القلـب الحـي، ووجـد الـشرط وهـو الإصغـاء، وانتفـى المانـعُ وهـو اشـتغال القلـب وذهوله عـن معنى الخطـاب، وانصرافـه عنـه إلى شيء آخـر، حصـل الأثـر وهـو الانتفـاع والتذكّـر»[3]، مِـن هنـا علينـا أنْ نجـزم بـأنّ مـرض القلـب أو غيابـه مانـعٌ مـن موانـع الفهْم، وصـارفٌ من صـوارف إدراك المُـراد مـن كلام اللـه تعـالى؛ لأنّ القلـب هـو محـلٌّ الانتفـاع، وقـد نسـب

(1) مختصر منهاج القاصدين: 67- 68.

(2) انظر مدارج السالكين: 1/ 442، بتصرف يسير، وانظر تدبر القرآن صـ 50

(3) الفوائد: صـ 1 .

الله تعالى إليه الإدراك في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {24/47}﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {46/22}﴾[2]، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ {7/2} ﴾[3]، ولكَوْن القلب هو محلّ الانتفاع أو الإعراض عنْ هذا الانتفاع؛ نسب الله تعالى في القرآن الكريم أفعالًا متعدّدة، مثل: الإصغاء، والخشوع، والوجل، والطمأنينة، كما نسب إليها القسوة، والكسب، والمرض، والختم، والصرف، والانتفاع، واللّهو، والزيغ..، إلى غير هذه الأوصاف التي تحتاج إلى دراسة مفردة[4].

7 التورّعُ الواهم:

بعضُ الناس لديهم فهْم مغلوط، أو تديّن مغشوش بتعبير بعض شيوخنا، يضعُ الأمور في غير مواضعها، ويزنُ الأشياء بغير موازينها، ومِن ذلك بعدُهم عن التدبّر القرآني ظنًّا منهم أنهم ليسوا أهلًا للتدبّر، ولا كفؤًا للتفكر، ويكتفون من ذلك بالقراءة المجرّدة، والوقوف عند تحصيل أجرِ

---

(1) محمد: 24.

(2) الحج: من الآية 46.

(3) البقرة: 7.

(4) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط: دار الحديث، مادة (قلب).

الأداء، ناسين أو جاهلين أنّ دور القرآن الكريم في الحياة ليس تحصيلَ الثواب للآخرة فحسب، بل أيضًا لإعمار الكون وإحياء الحياة على اسم الله تعالى، وعلى ضوءٍ من منهاجه وتشريعه، وهذا الفهْم المغلوط، أو النظرُ القاصر بابٌ من أبواب تلبيس الشيطان على الإنسان، حتى قال ابن هبيرة- رحمه الله- ومِن مكايد الشيطان تنفيره عبادَ الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أنّ الهدى واقعٌ عند التدبّر، فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلّم في القرآن تورّعًا»[1].

وقد عدّ ابن القيم هذا التلبيسَ لونًا من ألوان الحرج، يُخشى منه، فقال: (ومن قال إنّ له- أي القرآن- تأوّلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنّما نتلوه متعبّدين بألفاظه؛ ففي قلبِه منه حرج)[2]؛ ذلك لأنّ الهدف الأسمى من القرآن الكريم ليس فقط مجرد النظر في حروفه وصفاته، بل إقامة حدوده وتصوّراته، حتى يعمر الإنسان الأرض على منهاج هذا الكتاب الكريم، الذي هو وسيلة الأحياء في الحياة، وليس فقط ذخر الأموات بعد الحياة، ومِن أرْوع ما يذكر في ذلك كلامُ فقيه المقاصد- الإمام الشاطبي- رحمه الله- عندما يوازن بين كوْنه معجزًا، وكوْنه مفهومًا معلومًا، إذ يقول- رحمه الله-: (فمِن حيث كان القرآن معجزًا أفحَمَ الفصحاء، وأعجَزَ البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يخرجه

---

(1) انظر تدبر القرآن: صـ 52، نقلًا عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: 3/ 273.

(2) التبيان في أقسام القرآن: صـ 144.

عـن كوْنـه عربيًّـا جاريًـا عـلى أسـاليب كلام العـرب، ميـسّرًا للفهْـم فيـه عـنِ اللـه مـمّا أمـر بـه ونهـى، لكـنْ بـشرط الدُّربـة في اللسـان العـربي، إذ لـو خـرج بالإعجـاز عـن إدراك العقـول لمعانيـه لـكان خطابُهـم بـه مـن تكليـفِ مـا لا يُطـاق، وذلـك مرفـوعٌ عـن الأمّـة، وهـذا مِـن جُملـة الوجـوه الإعجازيـة إذْ مـن العجـب إيـرادُ كلام مـن جنـسِ كلام البـشر في اللّسـان والمعـاني والأسـاليب، مفهـوم معقـول، ثـمّ لا يقـدر البـشر عـلى الإتيـان بسـورة مثلـه، وقـد قـال تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلذِّكْـرِ فَهَـلْ مِـن مُّدَّكِـرٍ {17/54} ﴾[1]، وعـلى أي وجـه فـرض إعجـازه، فذلـك غـيرُ مانـعٍ مـن الوصـول إلى فهمـه ومعقـل معانيـه، ﴿كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ مُبَـارَكٌ لِّيَدَّبَّـروا آيَاتِـهِ وَلِيَتَذَكَّـرَ أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ {29/38} ﴾[2] فهـذا يسـتلزم إمـكانَ الوصـول إلى التدبّـر والتفهّـم[3]، فكـوْنُ القـرآن معجـزًا للفصحـاء، ومُسْـكتًا للبلغـاء لا يعنـي ذلـك أنْ يكـون عسـيرَ الفهْـم، أو بعيـد المَنـال، وإنْ كان للنـاس في فهمـه وتدبّـره درجـات، وقـد يتيـح اللـه تعـالى لإنسـانٍ مـن المعـاني مـا لا يجـده في كتـاب ولا يحصله عنـد غـيره مـن أهْـل التخصّـص والاسـتذكار، وكـمْ رأينـا في حياتنـا المعيشـة أفـرادًا لا يربطهـم بالقـرآن، إلّا إمعـان النظـر، وجـودة التفكـير، وحسـن المطالبـة يأتـون بمعـانٍ لم يقـف عليهـا علـماءٌ أفـذاذ وروّاد مميّـزون، ولعـلّ ذلـك وجـهٌ مـن أوجـه

(1) القمر: 17.

(2) ص: 29.

(3) الموافقات: 3/ 185.

إعجاز القرآن الكريم. وقد فنّد الشيخ الشنقيطي- رحمه الله- صاحب أضواء البيان شبهة أنّ تدبّر القرآن لا يكون إلّا لمجتهدٍ خاص، فذكر عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {24/47} ﴾[1] الآيات المُماثلة لذلك في الدّعوة إلى التدبر، والتفكّر، وذمّ مَن أعرض عن التدبّر والتفهم لآيات القرآن الكريم، وأكّد على أن كلّ مَن لم يشتغلْ بتدبّر هذا القرآن العظيم في آيات، أي: تصفّحها، وتفهّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها فإنه يعرض عنها، غير متدبّر لها فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إنْ كان ممّن أعطاه الله فهماً يقدر به على التدبّر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربّه مِن هجْر قومه هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا {30/25} ﴾[2]، وهذه الآيات المذكورة تدلّ على أنّ تدبر القرآن، وتفهّمه، وتعلّمه، والعمل به؛ أمرٌ لا بدّ منه للمسلمين، وقد بيّن النبي ﷺ أنّ المشتغلين بذلك هُم خيرُ الناس، كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنّه قال: (خيرُكم مَن تعلّم القرآن وعلّمه)[3] وقال تعالى: ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {79/3} ﴾[4]، فإعراض كثير من الأنظار عن النظر في كتاب الله،

(1) محمد: 24.

(2) الفرقان: 30.

(3) صحيح البخاري: ج 4 ص 1919.

(4) آل عمران: 79.

وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة من أعظم المناكر، وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى) [1]، وذكرَ- رحمه الله- أنّ كلام بعض الأصوليّين بأنّ تدبّر القرآن، وتفهّمه، والعمل به، لا يجوز إلّا لمجتهدين خاصّة.. قولٌ لا سندَ له مِن دليل شرعي أصلاً، بل الحقّ الذي لا شكّ فيه أن كلّ مَن له القدرة من المسلمين على التعلّم، والتفهّم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلّمها، والعملُ بها، أمّا العمل بهما مع الجهل بما يعمل به فممْنوع شرعًا، وأمّا ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلّم صحيح، فلَهُ أن يعمل به، ولو آية واحدة، أو حديثًا واحدًا، ومعلوم أنّ هذا الذّم والإنكار على مَن لا يتدبّر كتاب الله عامٌّ لجميع الناس، وممّا يوضّح ذلك أن المخاطبين الأوّلين الذين نزل فيهم هُم المنافقون والكفار، وليس أحدٌ منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقرّرة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهدْيه إلّا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي؛ لمَا وبّخ الله الكفارَ وأنكر عليهم عدمَ الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجةَ به حتى يحصّلوا شروط الاجتهاد المقرّرة عند متأخّري الأصوليّين....[2] وفي ذلك بيانٌ- أيّ بيان- عنْ أنّ التفهّم والتدبّر لا يقف عند حدّ العلماء والمجتهدين وإلّا ما كانت توجيهات القرآن وحكاياته عامّة

(1) أضواء البيان: جـ7 صـ 257، 258 ، ط: دار الحديث القاهرة، ط 1426هـ 2000م.

(2) السابق: 7/ 258

موجّهة إلى عموم الناس، وإلّا لما كانت توجيهات القرآن إلّا لفئةٍ مخصوصة من البشر.

8 الوقوفُ عند الأبنية الفكرية السابقة:

مِن صوارف الفهْم عن المعنى المُراد في القرآن الكريم أنْ يعتقد الإنسان أنّ القوالب الفكرية السابقة هي نهاية المطاف، وليس في الإمكان أبدع ممّا كان، وهذا الفهْم يقف بالقرآن الكريم عند عصر معين، وزمان محدّد، والواقعُ أنّ عطاء القرآن الكريم لا يقف عند حدّ، ولا ينقطع عند سدّ، بل يمضي مضيّ الزمان والمكان، ويبقى ما بقيَ الليل والنهار.

«إنّ من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم، فحالت بينه وبين التدبّر وكسْر الأقفال، ووضع الأغلال والآصار، والتحقّق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاغتراف منها لعلاج الحاضر، والامتداد صوْب المستقبل، واعتماده مصدرًا للمعرفة، والبعث الحضاري: التوهّم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي اتّخذت من القرآن في العصور الأولى هي نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النّصّ مُرتهِن بها في كلّ زمان ومكان، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائمًا قرينَ الهوى، وسوء النية، وفساد القصد، وفي هذا ما فيه مِن محاصرة للنّص القرآني، وقصر فهمِه على عصرٍ مُعين، وعقل مَحكوم برؤية ذلك العصر، وحجر على العقل، وتخويف من التفكير، الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبّر المطلوب إليه

نـصّ القـرآن[1]، ولا يشـكّ إنسـانٌ بـأنّ خـير الفهـومِ فهـومُ الجيـل الـذي شـهدَ لـه النبي ﷺ بالخيريـة، إلّا أنّ هـذا ليـس هـو نهايـة الشـوط، بـل القـرآن ومعانيـه يتجـدّد ولا يتبـدّد، لا يغيـض مـاؤه ولا يكـدر رواؤه وصفـاؤه، ولكـن يحتـاج إلى مَـن يحمـل أدوات الفهْـم السـليم، حتـى يوظفـه في كلّ عـصرٍ ومـصْر، وفي كلّ زمـان ومـكان.

وهــذا الصّــارف مــن صــوارف الفهْــم لــه بمـا قبلـه صهـرٌ ونَسـب، فـإذا كان السـابق يحـول دونَ ارتفـاق معـاني القـرآن الكريـم، وسـبْر أغـواره، والعيـش في ظلالـه، فـإنّ هـذا الصـارف يجعـلُ الناظـر في القـرآن الكريـم يقـف عنـد فهـومِ السـابقين، دون محاولـة تجديـد هـذه الفهـوم بمـا جـدّ مِـن معطيـات العـصر، وتطـوّر الزمـان، وهـؤلاء الأعـلام السـابقون، والأئمـة الراسـخون قالـوا أهـمّ مـا في زمانهـم، وأبـرز مـا أعطـاه لهـم وقتهـم، ولـو كانـوا في زماننـا ووقتنـا لـكان لهُـم مـع هـذا الـكلام رأيٌ آخـر يتناسـب مـع زماننـا ووقتنـا، ولا يعنـي ذلـك القفـز- كـما يقولـون- عـلى هـذا الـتراث الضخـم الـذي هـو وسـيلة مـن وسـائل الفهـم، وإنّمـا معنـاه هضـمُ هـذا الزّخـم العلمـي والـتراثي الزاخـر حتـى نفيـد مـن سـناه، ونسـتضيء بضيـاه، ونمـضي عـلى دربـه وطريقـه، وقـد كان الأسـتاذ أمـين الخـولي- رحمـه اللـه- يقـول: (أوّل التجديـد قتـلُ القديـم بحثًـا وفهـمًا)، وهـي حكمـةٌ عاقلـة رائـدة؛ ذلـك أنّ الفهْـم الحقيقـي لا يمكنـه أنْ يتجـاوز الفهـوم السـابقة، بـل

(1) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 17، 18، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة.

ينطلق منها ويبني عليها، أمّا إنكارها والتبرّؤ منها فهو قطعٌ للجذور، وسدّ للمنابع، ورفض للأصول، وكما أن ذلك خطأ وخطيئة؛ فإنّ الوقوف عند هذه الأصول وحدَها، دون الإفادة منها قد يكون عائقًا من عوائق الفهْم والفكر والتطبيق والعلم، (فإنّ الاقتصار على منهج النقل والتلقي يحاصر الخطابَ القرآني نفسه، ويقضي على امتداده، وقدرته على العطاء المتجدّد للزمن، وإلغاءٌ لبعده المكاني ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ {107/21} ﴾[1]، ولبعده الزماني ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2]، وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض، والنظر في البواعث والعواقب باستمرار النظر في الأنفس والآفاق، والاكتشاف الحسن للسنن والقوانين، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي[3]، وقد يكون سببُ ترسّخ هذه القناعة الفكرية في عقول المسلمين ما مرّوا به في عصور الانحلال والاضمحلال الذي شمل أبواب الفقه والفكر في عصور الضعف والهزيمة النفسية، حتى ينقل الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عن أحدِ المفسرين قوله: (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة، والحديث الصحيح، والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضالّ مُضل، وربما أدّاه ذلك إلى الكفر؛ لأن

(1) سبأ: 28.

(2) الأحزاب: 40.

(3) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 17، 18، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، بتصرف يسير.

الأخـذ بظواهـر الكتـاب والسـنّة مـن أصـول الكفـر) [1] فانظـر كيـف وصـل الأمـر بجيلٍ مـن النـاس أن يحـصر الفهْـم القـرآني في فـترة محـدّدة، وفهْـم محـدّد، مـع أننـا مـا أمِرْنـا بقـصر فهْـم القـرآن عـلى جيـلٍ دون جيـل، أو زمـنٍ دون زمـن، بـل طولبنـا بـأن نوظّـف الفهْـم السـابق الـذي عاشـه السـلف الصالـح، والأئمـة السـابقون، بمـا ينفـع مـا نعيشـه في حياتنـا المعـاصرة، (إنّ الدعـوة إلى محـاصرة العقـل، والحجـر عليـه، وقـصر الفهْـم والإدراك والتدبـر عـلى فهـوم السـابقين، هـو الـذي سـاهم بقـدرٍ كبـير في الانـصراف عـن تدبّـر القـرآن، وأقـام الحواجـز النفسـيّة المخيفـة التـي حالـت دونَ النظـر، وأبقـى الأقفـال عـلى القلـوب، وصـار القـرآن تناغيـم وتراتيـل، وبـدل أن يكـون المـيراث الثقـافي وسـيلة تسـهّل الفهـم، وتغنـي الرؤيـة وتُعـين عـلى التدبّـر، أصبـح مـن بعـض الوجـوه عائقًـا يحـول دونَ هـذا كلـه، وشـيئًا فشـيئًا تتحـوّل القدسـيّة مـن القـرآن إلى السـنّة، فنجعـل السـنة حاكمـة عـلى القـرآن، ومـن ثـمّ انتقلـت القدسـيّة لفُهـوم البـشر، وبقـي الكتـاب والسـنّة للتـبرّك)[2]، ولا يعنـي هـذا أنّنـا نريـد أنْ نتجـاوز هـذا الـتراث الضخـم مِـن الفهْـم الراسـخ، والإدراك الـراسي العميـق، الـذي توفّـر لـه مـن شـواهد النّـزول، وصحيـح المنقـول، مـا جعلـه خـيرَ الفهـوم، كـما يقـول شـيخ الإسـلام في مقدّمـة أصـول التفسـير، إنّمـا نريـد أن نفيـد منـه، ونسـتضيء بـه، حتـى نعـبر إلى إعـمار الأرض، وإصـلاح الدنيـا بالديـن.

---

(1) أضواء البيان: جـ7 صـ 262، نقلًا عن الصاوي، في الحاشية على الجلالين.

(2) كيف نتعامل مع القرآن: صـ 19

9 الاشتغالُ بالمُبهمات:

للقـرآن الكريـم منهـجٌ رائـد في عـرض قضايـاه، وتصويـر مـراده مـن إبـراز مـا يحتـاج إلى ظهـور، وإغفـال مـا لا يترتّـب عـلى تركـه فائـدة، ولـو اتّبعـت هـذا المنهـج القـرآني الـذي سـار عليـه في عـرض القصّـة مثـلاً سـنجد أنـه لا يذكـر المـكان، ولا الزمـان، ولا الملامـح الشـخصية كاملـةً إلّا إذا ترتّـب عـلى ذلـك فائـدة، كـما أنـه لا يقـف عنـد الأسـماء والأعـداد، وفي ذلـك مـا فيـه مـن فوائـد كإثـارة الذهـن، ويقظتـه، وعـدم تقديـم الكـمّ المعـرفي كامـلاً؛ لينشـط إلى تتبعـه، واحـترام هـذا العقـل البـشري، فـلا يذكـر لـه إلّا مـا يعنيـه ويفيـده، ويجعلـه عقـلاً يحلّـل ويعلّـل ويسـتنبط، ويكـون لديـه تلـك المهـارة والقـدرة عـلى الاسـتنتاج والفهْـم، وفي ذلـك دعـوةٌ عمليّـة للعقـل المسـلم أن يكـون في تفكـيره وعلمـه عـلى نفـس هـذا المنهـاج القـرآني العزيـز، مِـن هنـا ضرب القـرآن الكريـم الذكـرَ صفحًـا عـن أشـياءَ لا تفيـد العقـل المسـلم، فـإذا أغـرق العقـل نفسـه في هـذا المبهـمات، وتنكّـب المنهـاج القـرآني في التعامـل مـع القـرآن نفسـه؛ وضـع بذلـك أمـامَ نفسـه صارفًـا مـن صـوارف فهْـم القـرآن، وهـو الاشـتغال بالمُبهـمات، والجـري وراء معرفتهـا، وفي ذلـك مـا فيـه مـن صرف همّـة العبـد عـن الأهـمّ إلى غـير المُهـم، ومِـن المـراد إلى غـير المـراد.

10 عدمُ استصحاب قواعد التفسير:

لا شـكّ أنّ علـم قواعـد التفسـير، والعلـم بمفـردات علـوم القـرآن بـابٌ عظيـمُ النّفـع في معرفتـه مـراد اللـه تعـالى مِـن كلامـه قـدْرَ الطاقـة البشريـة، وكلّ بـابٍ مـن

هـذه الأبـواب لـه ظـلالٌ خاصّـة، وإضافـة مُفيـدة في فهْـم القـرآن، فكيـف يصـل إلى الفهْـم مثـلاً مَـن لم يعـرف الفـرقَ بـين المـكّي والمـدني، والناسـخ والمنسـوخ، أو أسـباب النـزول، أو معهـود العـرب في خطابهـم وثقافتهـم الفكريـة والاجتماعيـة، ومفـردات حياتهـم، وقـد مـرّ بنـا شيء مِـن هـذه المفـردات، عرفنـا أهميتهـا وفائدتهـا في إيضـاح المعنـى، وبيـان المـراد، ولا يقـلّ أهميّـة عـن ذلـك إدراك قواعـد التفسـير تلـك التـي تعـدّ خلاصـات، قدّمهـا رواد هـذا العلـم مِـن خـلال اسـتقرائهم لآيـات القـرآن الكريـم، وخرجـوا بهـا ليفيـد بهـا المشـتغلون بهـذا العلـم خاصـة، والقارئـون والسـامعون لهـذا الدسـتور بصفـة عامـة.

وتـركُ هـذه القواعـد وعـدم تطبيقهـا، أو الجهـل بهـا وشيء مـن مفـردات علـوم القـرآن يجعـلُ فهْـم الإنسـان للنّـص القـرآني فهـمًا قـاصرًا، وإدراكـه لـه إدراكًا باهتًـا.

# المبحثُ الرّابع
# مُعيناتُ الفهْم

أمّا مُعينات الفهْم، والوصول إلى معرفة معاني القرآن الكريم بقدْر الطاقة البشرية فهي متعدّدة، منها ما يلي:

1 المعايشة:

ومَن ذاقَ عرف، ومَن عرفَ اغترف، ومن حرام انحرف،

لا يدرك الشوقَ إلّا مَن يكابده     ولا الصبابة إلّا مَن يعانيها[1]

إنّ استصحاب القرآن الكريم في القلب والعقل، والتحاكم إليه في صغيرِ الأمر وكبيره بابٌ عظيم النفع من أبواب الإفادة من معاني القرآن الكريم، وهو علامة على حياة القلب، ويقظته، واستعداده للنفع، كالبلدة الآمنة التي يأتيها رزقها رغدًا مِن كلّ مكان، أو ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾[2]، يقول ابن القيم- رحمه الله-: (مِن الناس مَن يكون حيَّ القلب، واعيه، تامّ الفطرة، فإذا فكّر بقلبه، وجالَ بفكره؛ دلّه قلبه وعقله على صحّة القرآن، وأنه حقّ، وشهد قلبه

---

(1) انظر المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير: ج1 ص 157، ط المكتبة العصرية.

(2) البقرة: 265.

بما أمر به القرآن، فكان ورودُ القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾[1] وقوله: ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾[2]، فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا صاحب القلب الحيّ الواعي يجمعُ بين قلبه الواعي وبين معاني القرآن، فيجدها كأنّها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب، ومِن الناس مَن يكون تامّ الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميّز بين الحقّ والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره، وزكاء فطرته مبلغَ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق وصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه للتأمل والتفكر فيه، وتعقّل معانيه، فيتعلّم حينئذ أنه الحقّ)[3]. إن معايشة الإنسان للقرآن الكريم تفتحُ له مغاليق الفهْم، وتيسّر له سبل الوصول إلى مراد الله تعالى، وكمْ من فقهاء ومفسّرين عاشوا في ظلال القرآن الكريم في أتون المِحَن، فأثمرت تلك المعايشة والمخالطة ما لا يتيسّر لغيرهم في بحبوحة الحياة، وذلك ما كان يذكره ابنُ القيم من حال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- إذْ يقول: سمعتُه غيرَ مرّة يقول: (ما يصنع أعدائي بي، إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن نفوني فنفيي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله، أنا في

---

(1) سبأ: 6.

(2) النور: من الآية 35.

(3) انظر الفوائد: صـ10، 11، بتصرف يسير، ط: مكتبة نذار مصطفي الباز، ط الثانية، 1425هـ/ 2004م.

صدري كتابُ الله وسنة نبيه)[1]، وكم من علماء عاشوا محاور القرآن الكريم وهُم في محْنة من المِحَن، فكانت فيوضات وعطاءات دونها عطاء الكتاب والقرطاس، مِن هنا تعيّن على المسلم أن يعايش القرآن الكريم معايشةً تبرز له معانيه، ويختلط بروحه، وعقله، وفهمه، ووعيه، حتى يصل من الخير إلى ما يريد. إنّ المعايشة تُعين على استحضار الصورة التي يتناولها القرآن الكريم، فيرى أهل الجنان منعّمين، وأهل النار معذّبين موقوفين؛ لذلك كان أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس حظًّا في فهْم القرآن الكريم، والانتفاع به، وذلك كما يقول شيخ الإسلام في مقدّمته: (لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التي اختصوا بها، فحصل لهم الفهْم التامّ، والعلم الصحيح)[2]، إنّ الذي يعايش القرآن الكريم في حِلّه وتِرحاله، ويطوي معه الزمن في ليله ونهاره، فيسير في عمق الزمان ماضيًا واستقبالًا، ستفتح له كنوز من المعرفة لا يدركها إلّا مَن ذاقها وخبرها، وعندئذ ستتحوّل حياته إلى حركة وعمل، وعطاء وبذل؛ لأنها ستُضاء بمفاهيم القرآن التي تشبّعت بها، وتزن بموازين القرآن، فلا تقدم إلّا ما قدّمه الله في كتابه، ولا تؤخّر إلّا ما أخّره الله في كتابه، ولا يفهم النصوص القرآنية حقّ الفهْم إلّا مَن عاش العيش الحقيقي مع القرآن الكريم، ليترك نفسه تسبِّح مع المسبّحين، وتستغفر مع المستغفرين، وتذكر مع الذاكرين،

(1) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: ص 73،74، لابن القيم، ط: دار الكتاب، بيروت لبنان، ط أولى، 1425هـ ،2004م.

(2) مقدمة في أصول التفسير: صـ 140، ط: دار المؤيد، ط أولى 1423هـ 2002م.

وليطلـق لهـا عنـانَ الرؤيـة، حتـى تعايـش أصحـاب النعيـم في نعيمهـم، وتـرى مصـارع الغابريـن في مهالكهـم، وتـرى إنجـاء اللـه تعـالى لأصحـاب الدعـوات والرسـالات، عـلى تطـاول الأعصـار والأمصـار، وكـمْ كان سـلفنا الصالـح- رضـوان اللـه عليهـم- يحيـوْن هـذه الحيـاة القرآنيـة، وكـم مـرّ بنـا مـن موقـف لهـم، يقـف الواحـد منهـم ليلـةً كاملـة مـع آيـة يعايشـها ويحقّقهـا في نفسـه، يقـول الإمـام النـووي- رحمـه اللـه-: (ويسـتحبّ لـه إذا مـرّ بآيـة رحمـةٍ يسـأل اللـه تعـالى مِـن فضلـه، وإذا مـرّ بآيـة عـذابٍ أن يسـتعيذ باللـه مـن الـشرّ ومـن العـذاب، ويقـول: اللهـم إني أسـألك العافيـة، أو أسـألك المعافـاة مـن كلّ مكـروه، ونحـو ذلـك، وإذا مـرّ بآيـة تنزيـهٍ للـه تعـالى نـزَّه فقـال: سـبحانه وتعـالى، أو تبـارك وتعـالى، أو جلّـت عظمـة ربّنـا، فقـد صـحّ عـن حذيفـة رضـي اللـه عنـه قـال: صلّيـت مـع النبـي ﷺ ذات ليلـة، فافتتـح البقـرة، فمـضى فقلـتُ يركـع بهـا، ثـمّ افتتـح آل عمـران فقرأهـا، ثـم افتتـح النسـاء فقرأهـا، يقـرأ ترسّـلاً، إذا مـرّ بآيـة فيهـا تسـبيح سـبّح، وإذا مـرّ بسـؤال سـأل، وإذا مـرّ بتعـوّذ تعـوّذ)[1]. ومـن صـور المعايشـة والتجـاوب في آيـات اللـه تعـالى التـي يقرؤهـا ويتجـاوب معهـا أنـه إذا مـرّ بآيـة فيهـا صـلاة عـلى النبـي ﷺ صـلّى وسـلّم عليـه، وإذا مـرّ بآيـة فيهـا سـؤال يعلمـه أجـاب كقولـه تعـالى ﴿أَلَيْـسَ

(1) التبيان في آداب حملة القرآن: صـ 58، والحديث رواه مسلم، ج1 صـ 536، برقم 772، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل 58.

ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى {40/75}﴾[1] قال: بلى قادر، وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عن الجميع- أنهم إذا قرأ أحدهم ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾[2] قال: سبحان ربي الأعلى، وعن عمر رضي الله عنه كان يقول فيها: سبحان ربي الأعلى ثلاث مرّات[3] ولا يصل الإنسان إلى هذه الصورة إلّا بمعاينة ما يقرأ ومعايشة ما يتلو، حتى يصير ما يقرؤه حيًّا أمامه، سواء كان ذلك في عالم الغيب أمْ في عالم الشهادة، وهذا ما عبّر عنه حجّة الإسلام الإمام الغزالي بمنزلة التأثّر ووصفه بقوله: (وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهْم حال ووجد، يتصف به قلبه مِن الحزن، والخوف، والرجاء، وغيره...، فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يطأطئ خضوعًا لجلاله، واستشعارًا لعظمته، وعند ذكر الكفّار ما يستحيل على الله- عزّ وجل- كذكرهم لله- عزّ وجلّ- ولدًا وصاحبة يخفض صوته، ويكسر في باطنه حياء لقبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها، وعند وصف النار ترتعد

(1) القيامة: 40.

(2) الأعلى: 1.

(3) التبيان: صـ 79.

فرائصه خوفًا منها، ولمّا قال رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: (اقرأ عليّ قال: فافتتحت سورة النساء، فلمّا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّة بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا {41/4} ﴾[1] رأيت عينيه تذرفان بالدّمع، فقال لي: حسبك الآن)[2]، وهذا لأنّ مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية، ولقد كان في الخائفين مَن له أحوالٌ في سماع الآيات فمثل هذه الأحوال تخرجه عن أن يكون حاكيًا في كلامه، فإذا قال ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3]، ولم يكن خائفًا كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[4] ولم يكنْ حال التوكل والإنابة كان حاكيًا، وإذا قال ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾[5]، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة؛ فإن لم يكنْ بهذه الصفات، ولم يتردّد قلبه بين هذه الحالات كان حظّه مِن التلاوة حركة اللسان[6]، وضرب الإمام مثلاً لمَن يقرأ القرآن ولا يعايشه بقلبه، ولا يحياه بحسّه وروحه بالذي يقرأ

---

(1) النساء: 41.

(2) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ج4 صـ192 من حديث عبد الله بن مسعود، ط: دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط الثانية، ت/ مصطفى البغا.

(3) يونس: 15.

(4) الممتحنة: 4.

(5) إبراهيم: 12.

(6) الإحياء: 1/ 400، 401.

كتـاب مليكِـه، الـذي يأمـره بإعـمار مملكتـه، وهـو مُمْعـن في تخريبهـا، ومدمـنٌ لقـراءة الكتـاب، وكأنّ الإمـام بذلـك يعايـن أحـوال عمـوم المسـلمين إلّا مـن رحمـه اللـه، فيقـول: (ومثـال العـاصي إذا قـرأ القـرآن وكـرّره، مثـال مَـن يكـرّر كتـاب الملـك في كلّ يـوم مـرات، وقـد كتـب إليـه في إعـمار مملكتـه، وهـو مشـغول في تخريبهـا، ومقتـصرٌ عـلى دراسـة كتابـه، فلعلّـه لـو تـرك الدراسـة عنـد المخالفـة لـكان أبعـدَ عـن الاسـتهزاء، واسـتحقاق المقْـت، وصـور معايشـة الجيـل الأول وعنايتهـم بهـذه المخالطـة بينهـم وبـين القـرآن الكريـم بقولـه: (لقـد كان شـغل الصحابـة - رضي اللـه عنهـم - في الأحـوال والأعـمال، فـمات رسـول اللـه ﷺ عـن عشريـن ألفًـا مـن الصحابـة، لم يحفـظ القـرآن منهـم إلّا سـتة، اختُلـف في اثنـين منهـم، وكان أكثرهـم يحفـظ السـورة والسّـورتيْن، وكان الـذي يحفـظ البقـرة والأنعـام مـن علمائهـم، ولمّـا جـاء واحـدٌ ليتعلـم القـرآن فانتهـى إلى قولـه- عـزّ وجـلّ- ﴿فَمَـن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْـرًا يَـرَهُ {7/99} وَمَـن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُ {8/99}﴾[1] قـال يكفـي هـذا وانـصرف، فقـال ﷺ: «انـصرف الرجـل وهـو فقيـه»[2]، إنمـا العزيـز مثـل تلـك الحالـة التـي مَـنّ اللـه -عـزّ وجـل- بهـا عـلى قلـب المؤمـن عقـب فهْـم الآيـة، فأمّـا مجـرد حركـة اللسـان فقليـل الجـدوى[3].

(1) الزلزلة: 7، 8.

(2) الحديث ذكره ابن حبان في صحيحه، ج3 صـ50 بلفظ مقارب.

(3) انظر الإحياء: 1/ 402 بتصرف واختيار.

إنّ المـراد مـن المعايشـة أنْ يصـل القـارئ والسـامع إلى درجـة التواصـل الحقيقـي مـع القــرآن الكريــم، فيحــسّ بإحساســه، ويشــعرُ بشــعوره، وينظــر إلى مقاصــده وغاياتـه، ويدنـو إلى أهدافـه ومتطلباتـه، سـاعتَها تكـون رسـالة القـرآن في الحيـاة قـد وصلـت إلى الأحيـاء، ويومئـذٍ يفـرح المؤمنـون بنـصر اللـه. (ومَـن يعايـش القـرآن هذه المعايشـة، ويقبـل عليـه هـذا الإقبـال تنفتحُ النصـوص عـن رصيدهـا المذْخـور، وتنفتح القلـوب لإدراك مضامينهـا الكاملـة، وهنـا تتحـوّل تلـك النصـوص مـن كلـمات وسـطور إلى قـوى وطاقـات، وتنتفـضُ الأحـداث والوقائـع المصـوّرة فيهـا، تنتفـض خلائـقُ حيّـة موحيـة دافعـة تعمـل في واقـع الحيـاة وتدفـعُ بهـا إلى حركـة حقيقيـة في عـالم الواقـع، وفي عـالم الضمـير، وإنّ الإنسـان ليقـرأ النّـص القـرآني مئـات المـرات، ثـمّ يقـف الموقـف أو يواجــه الحــادث فــإذا النّــص القــرآني جديــدٌ يوحــي إليــه بمــا لم يــوحِ مــن قبْــل قـط، ويجيـب عـلى السـؤال الحائـر، ويفتـي في المشـكلة المعقّـدة، ويكشـف الطريـق الخفـي، ويرسـم الاتجـاه القاصـد، ويمـضي بالقلـب إلى اليقـين الجـازم في الأمـر الـذي يواجهـه، وإلى الاطمئنـان العميـق، وليـس ذلـك لغـيرْ القـرآن في قديـم ولا حديـث)[1].

2 حضورُ القلب:

فكيــف يفتــح القــرآن كنــوزَه لقلــبٍ غافــل غــير يقظــان، أوْ لاهٍ مشــغول عــن عطائــه وفيضــه، إنّ القلــب إذا حــضر عنــد ســماع القــرآن، أو تلاوتــه وقراءتــه،

(1) في ظلال القرآن: جـ5 صـ 2886 .

فتحت أمامه مغاليق الفهْم، وتبدّد لديه كسف الظلام، فإذا بنور القرآن يسري في عقله وقلبه، وروحه ودمه، فيجعله إنسانًا آخر، إنسانًا قرآنيًّا، يتحرّك بالقرآن شغله ومحياه، ومصبحه وممْساه، تتماسك أمامه القيم، ولا تنفلت بين يديه المعايير، وقد كان حال السّلف الصالح مع القرآن حالًا يحتاج منّا إلى وقفة، فقد كانوا وقّافين عند كلام الله، حضور قلب، ويقظة فؤاد، وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1]: (أنّ المراد: بجدّ واجتهاد، وأنّ أخذه بالجدّ أن يكون مجردًا له عند قراءته، منصرفَ الهمّة إليه عن غيره، وقد قيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحبّ إليّ مِن القرآن حتى أحدّث به نفسي؟ وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبُه فيها أعادَها ثانية، وهذه الصفة تتولّد عن صفة التعظيم لكلام الله تعالى؛ فإنّ المعظّم للكلام الذي يتلوه يستبشر به، ويستأنس، ولا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب، إن كان التالي أهلًا له، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزّه عنه، والذي يتفرّج في المتنزهات لا يفكّر في غيرها، فقد قيل: إن في القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيج، ورياضًا، وخانات، فإذا دخل القارئ الميادين، وقطفَ من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيج، وتنزّه في الرياض، وسكن غُرف الخانات،

(1) مريم: من الآية 12.

استغرقه ذلك، وشغل عمّا سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرّق فكره[1]. وهو توصيف راقٍ من حجّة الإسلام لحضور القلب ويقظته، وعدم مبالاته بما سوى القرآن أو الاعتناء بما عداه.

3 المدارسة:

وهي صورةٌ من صور الرغبة في تفهّم القرآن الكريم، والوقوف على حروفه وحدوده، واستنباط حكمه وأسراره، وقيمه ومعانيه، وهذا ما حثّ عليه النبي ﷺ، ورغّب فيه بقوله: (ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم إلّا غشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمَن عنده)[2]، والمدارسة لونٌ من ألوان اختزال الفكْر، واستدعاء المعاني والاجتماع على مائدةٍ قرآنية واحدة، يقطف منها أصحاب ثقافات متعدّدة، يأخذون منها ما تطيب به نفوسُهم، وتصحّ به عقولهم، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتدارسون القرآن، ويعيشون حولَه، بلْ به، وما أسئلة عمر الفاروق لأصحابه عن معنى (التخوف)[3] ومفاد

(1) انظر إحياء علوم الدين: ج1 ص 394،395، ط: بيروت ط أولى 1424هـ/ 2004م.

(2) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ج 4 ص 2699، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج1 ص 99

سـورة النّـصر[1] وغيرهـا منّـا ببعيـد، فهـذه المدارسـة تعـين عـلى توقّـد الذهـن، وحضـور العقـل، وتكامـل الفكـر، حتـى يفيـد المتدارسـون للقـرآن أكـبرَ فائـدة، فقـد قـال ابـن عبـاس (الدراسـة صـلاة)، وقـال ابـن مسـعود t تذاكـر العلـم بعـض ليلـة أحـبّ إليّ مِـن إحيائهـا [2] ونُقـل عـن ابـن القيـم قولـه: (ملاقـاة الرجـال تلقيـح لألبابهـا؛ فالمذاكـرة بهـا لقـاحُ العقـل) [3].

وقـد كان النبـي ﷺ يـدارس أصحابـه، فهـذه أمّنـا عائشـة- رضي اللـه عنهـا- تـدارس النبـي ﷺ وتسـأله، فعـن ابـن أبي مُليكـة أنّ عائشـة- رضي اللـه عنهـا- كانـت لا تسـمع شـيئًا لا تفهمـه إلّا راجعـت فيـه حتـى تفهمـه، وأنّ النبـيﷺ قـال: (مَـن حوسـب عُـذّب) فقالـت عائشـة- رضي اللـه عنهـا- فقلـت: أليـس يقـول اللـه تعـالى ﴿ فَأَمَّـا مَـنْ أُوتِـيَ كِتَابَـهُ بِيَمِينِـهِ {7/84} فَسَـوْفَ يُحَاسَـبُ حِسَـابًا يَسِـيرًا {8/84} ﴾[4] فقـال رسـول اللـه ﷺ: «إنّمـا ذلـك العـرض، وليـس أحـد ينـاقَش الحسـاب يـوم القيامـة إلّا عـذب)[5].

---

(1) انظر صحيح البخاري: ج3 ص 1327، وتفسير القرآن العظيم لعماد الدين ابن كثير: ج4 ص 728

(2) جامع البيان العلم وفضله: 1/ 22 وانظر تدبر القرآن: صـ 144

(3) مفتاح دار السعادة: صـ 217

(4) الانشقاق: 7، 8

(5) صحيح البخاري: ج1 صـ51 باب: مَن سمع شيئًا وراجع فيه، من حديث ابن أبي مليكة.

يقول ابن حجر في الفتح: (وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهّم معاني الحديث، وأنّ النبي ﷺ لم يكن يتضجّر من مراجعة العلم، وفيه جوازُ المناظرة ومقابلة السنة بالكتاب- وقد وقع ذلك لغير عائشة)[1].

4 صدقُ الطّلب:

ولا شكّ أنّ صدق القلب والإخلاص والإلحاح في طلب الفهْم طريقٌ موصّل إلى المراد، فإنّهم قالوا: مَن أكثر الطّرقَ أوشك أن يُفتح له. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: (مَن تدبّر القرآن طالبًا الهدى فيه تبيّن له طريق الحق)[(2)]، ولِمَ لا! والقرآن لا يرضى بأن يكون له مِن الناس فضلُ الأوقات، ولا فضل العزمات، وإنما يرضى بأنْ تعطيه كلَّك حتى يكشف لك عن بعض كنوزه وعطاياه، ومِن صدق الطلب إدامةُ النظر فيه، والتفكّر في كلماته ومراميه.

5 سلامةُ التلاوة، والترسّل فيها، والترتيب بين أجزائها:

إنّ سلامة التلاوة طريقٌ إلى سلامة الفهم، وإتقانَ الأداء بابٌ موصل إلى التدبّر والتفكّر، والترسّل في القرآن بترتيل وترتيب معين من معينات الفهْم، ولأمرٍ ما كان جبريل - عليه السلام يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كلّ عام

(1) انظر فتح الباري: ج1 ص 197، ط: دار المعرفة بيروت،1379

(2) انظر مجموع الفتاوى: ج3 ص 137

مـرّة، فلـمّا كان العـام الـذي تـوفّي فيـه ﷺ عارضَـه بالقـرآن مرتـين[1] ولذلـك قـال السـيوطي في إتقانـه: (إنّ التحقيـق يكـون للرياضـة والتعلّـم والتمريـن، والترتيـل يكـون للتدبّـر والتفكّـر والاسـتنباط)[2]، ولا شـكّ أنّ الترسّـل في القـراءة والترسّـل بهـا يُعـين عـلى فهْـم القضيـة المترابطـة، والمعنـى الواحـد الـذي لا يكتمـل إلّا باكتـمال جزئيّاتـه، وقـد اسـتحبّ العلـماء الترتيـل لأنّـه معـين عـلى الفهْـم كـما ذكـر حجّـة الإسـلام ذلـك في إحيائـه وهـو يعـدّد آداب القـراءة، فيقـول: (الخامـس- أي مـن آدابهـا-: الترتيـل وهـو مسـتحبّ في هيئـة القـرآن لأنّ المقصـود مـن القـراءة التفكّـرُ والترتيـل مُعـين عليـه، ولذلـك نعتَـت أمّ سـلمة- رضي اللـه عنهـا- قـراءة رسـول اللـه ﷺ فـإذا هـي تنعـت قـراءة مفـسرة حرفًـا حرفًـا[3]، وقـال ابـن عبـاس رضـي اللــه عنـه: لأنْ أقـرأ «إذا زلزلـت» و«القارعـة» أتدبّرهـما أحـبّ إليّ مِـن أن أقـرأ «البقـرة» و « آل عمـران» تهذيـرًا[4]، وسـئل مجاهـد عـن رجلـين دخـلا في الصـلاة، وكان قيامُهـما واحـدًا إلّا أنّ أحدهـما قـرأ البقـرة فقـط، والآخـر القـرآن كلّـه، قـال:

(1) انظر صحيح مسلم: ج4 ص 1904.

(2) الإتقان: 1/ 100، ط: المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

(3) انظر المجتبى من السنن: ج2 ص 181، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية1406، 1986م، ت/ عبد الفتاح أبو غدّة، مذيلة بأحكام الشيخ الألباني، وذكر الشيخ فيه أنه ضعيف.

(4) انظر المصنّف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبة، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ط أولى 1409 هـ ت/ محمد كمال يوسف، ج 2 ص 256.

هـما في الأجْـر سـواء[1] [2]، كـما أنّ القـراءة بترتيـبٍ تُعـين أيضًـا عـلى الفهْـم والتدبـر وذلـك للترابـط الموضوعـي الـذي هـو لـونٌ مـن ألـوان الإعجـاز القـرآني، فـإنّ كلّ آيـة مـع أختهـا تمثـل ربطًـا بديعًـا ورصفًـا محكـمًا يضيـع جمالـه بتقطيعـه، وكلّ آيـةٍ مـع أختهـا لُحمـة واحـدة تمهّـد السـابقة للاحقـة، وتؤكّـد اللّاحقـة عـلى السـابقة في تناغـم واتّسـاق، وكذلـك ترتيـب السـور بعضهـا بعـد بعـضٍ لحكمـةٍ وغايـة حتـى قـال الإمـام النـووي- رحمـه اللـه-: (الاختيـار أن يقـرأ عـلى ترتيـب المصحـف، فيقـرأ الفاتحـة ثـمّ البقـرة ثـمّ آل عمـران ثـمّ مـا بعدهـا عـلى الترتيـب، وسـواء قـرأ في الصـلاة أو في غيرهـا.. ويسـتحبّ إذا قـرأ سـورة أن يقـرأ بعدهـا التـي تليهـا؛ ودليـل هـذا ترتيـبُ المصحـف إنّمـا جعـل هـذا لحكمـةٍ ينبغـي أن يحافـظ عليهـا إلّا فيـما ورد الـشروع باسـتثنائه كصـلاة الصبـح يـوم الجمعـة يقـرأ في الأولى سـورة السـجدة، وفي الثانيـة سـورة الإنسـان، ونحـو ذلـك) [3].

هـذا وقـد سـار أصحـابُ النبـي ﷺ عـلى منهاجـه في الترسّـل والتريّـث في القـراءة والترتيـب كذلـك، حتـى أنكـرَ ابـن مسـعود رضـي اللــه عنـه عـلى نهيـك بـن سـنان سرعتـه في القـراءة حـين قـال: قـرأت المفصّـل البارحـةَ، فقـال عبـد اللـه: هـزًّا كهـزّ الشّـعْر.. [4]

(1) انظر فتح الباري: ج 9 ص 89.

(2) إحياء علوم الدين: صـ 388.

(3) التبيان في آداب حملة القرآن: صـ 62، 63.

(4) رواه مسلم: ج1 ص635، باب ترتيل القراءة، برقم 822.

وخلاصةُ القول أنّ الترسّل في القراءة والتمهل فيها يؤدي إلى ضبط معانيها، وإدراك أهدافها، والترتيب فيها يؤدي إلى ترابط أهدافها، وظهور مقاصدها، واتضاح معانيها، واكتمال فكرتها في ذهن القارئ والسامع؛ من هنا كان الترسل والترتيب في القراءة معينًا من مُعينات الفهْم.

6 استظهارُ القرآن، وإدامة النظر فيه:

وهذا أيضًا من الأبواب التي تمهّد للفهْم وتُعين عليه؛ فإنّ استظهار القرآن واستحضارَه يجعل العقل أقدرَ على تفهّم قضاياه، والربط بين محاوره، ولعلّ لمحة من لمحات الإضاءة، أو إلماعةً من إلماعات التوفيق ساعة مراجعة أو استذكار رأي لا تكون إلّا كصيد الخاطر، أو طيرٍ سارح، يحتاج إلى ربط وتقييد، فهذا الكتاب لا تنتهي عجائبه، ولا تبلَى جدّته، ومن الأمور المجرّبة أنّ المرء يكون قد تلا الآية أكثر من مرّة، ويتلوها من جديد فيتبيّن له معنى ما كان قد وقف عليه من قبل..؛ إن الاتّصال الدائم بالقرآن: تلاوة، وترتيلًا، ودراسة، وحفظًا؛ من الأمور التي لا بدّ للمفسّر مِن أن ينصب بها، وحفظ العالم للقرآن والاتصال الدائم به يُعينه في تفسيره القرآن بالقرآن، ولا تسدّ المعاجمُ الموجودة مسدّ الحفظ أبدًا..( وتلاوة القرآن بترتيل وتدبّر بصورةٍ دائمة توقف المفسّر على كنوزٍ لا حصر لها، فقد ينقدحُ في نفس القارئ مرّة مِن المعاني في تفسير آيةٍ ما لم يكن يخطر باله من قبل، وربما يكون المعنى الذي

وقفَ إليه لم يتناوله أحدٌ من قبل)[1]؛ إنّ إمعان النظر في هذا الكتاب الكريم يكشفُ فيه كلّ يوم عن كلّ جديد، وسيظل معطاءً زاخرًا ما توالى الجديدان، وتتابع الحدثان، فكلّ عصرٍ مِن العصور يضيف إلى فهوم السابقين فهمًا جديدًا، وكلّ لمسة من مفسّر تضيف جديدًا، وتفيد حميدًا مِن هذا الكنز الذي لا يذهب رواؤه، والمعين الذي لا ينضبُ ماؤه، وهي معجزة من معجزات الله تعالى للبشر على مرّ الأيام، وتتابع السنين.

7 صلاةُ اللّيل:

قيامُ الليل بالقرآن مِن أقوى الطرق الموصلة إلى فهمه ومعرفته، ولِمَ لا؟ والليل بابُ الخشوع والخضوع، فيه يستأنس المحبّون بمحبوبهم، ويستوحشون من زحمة الدّنيا في نهارهم، حتى ما يجدون راحةَ أنس، ولا حلاوة مناجاة، إلّا في تلكم الأوقات التي لا أنيس فيها ولا جليس، ولا رقيب ولا حسيب، إلّا علّام الغيوب- سبحانه وتعالى- فيفرّون مِن زحمة الدنيا، وصخب الحياة، وضجيج الناس، وتهارشهم على الحياة، ومتعها، وزخارفها، إلى هدأة الليل وسكونه؛ فإنه للصوت أسمع، وللقلب أخشع، وللعين أدمع، وإلى ستر العيوب عن الخلق أقرب، ولأمرٍ ما كان قيام الليل في حقّ النبي ﷺ والجماعة المؤمنة الأولى فرضًا، حتى نزل التخفيف عن الأمّة،

(1) بحوث في أصول التفسير، صـ31، ط المكتب الإسلامي، ط أولى 1408 هـ 1988م.

وبقـي في حـقّ النبـي ﷺ فرضًـا إلى أنْ مـات، ولـك أن تعـيش قولـه تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {1/73} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً {2/73} نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً {3/73} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً {4/73} إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً {5/73} إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً {6/73}﴾[1]، (فإن مغالبة هتاف النوم، وهتاف وجاذبية الفراش، بعد كدّ النهار، أشدّ وطئًا، وأجهد للبدن، ولكنه إعلانٌ لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله تعالى، وإيثار للأنس به، ومِن ثمّ فإنها أقوم قيلاً؛ لأن للذكْر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لتسكب في القلب أنسًا، وراحة، وشفافية، ونورًا، قدْ لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه، وما يوقع عليه وأيّ الأوقات يكون فيها أكثر تفتّحًا، واستعدادًا، وتهيئًا، وأي الأسباب أعلق به، وأشدّ تأثيرًا فيه، والله تعالى وهو يعدّ عبده ورسوله محمدًا ﷺ لتلقّي القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم؛ اختار له قيامَ الليل؛ لأنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطئًا، وأقوم قيلاً، ولأنّ له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيرًا من الطاقة والالتفات)[2]، وقد قال ابن عباس رضي اللـه عنه قوله تعالى: «وَأَقْوَمُ قِيلاً» قال: هو أجدرُ أن يفهمه القرآن. ويقول ابن حجر- رحمه الله- عن مدارسة النبي ﷺ في كلّ ليلة من

(1) المزمل: 1-6.

(2) الظلال: ج6 ص 3745 و3746.

رمضان: المقصود من التلاوة الحضورُ والفهْم؛ لأن الليل مظنّة ذلك، لما في النهار مِن الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية[1]، وهناك من الشواهد ما يدلّ على اقتران قراءة القرآن بالليل، فمنها قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ﴾[2]، وقوله ﷺ: (مَن نام عن حزبِه فقرأ فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب كأنّما قرأه من الليل[3].

8 التحلّي بأخلاق القرآن قولًا وعملًا:

والتحلّي بأخلاق القرآن، والتطبّع بصفاته التي أرشد إليها بابٌ من أبواب التفاعل مع هذا الكتاب الكريم، الذي لا يفتح كنوزه- بحقّ- إلّا لمَن عاشه، وعايشه معايشةً فعليّة، لا معايشة ثقافية، ولا فكرية فحسب، فكم رأينا من ومضات وتذوقات لأفرادٍ بضاعتُهم في علوم القرآن وأصوله ليست كبيرة، ولكنّ طباعهم وأخلاقهم مصدرها القرآن، ومرجعُها هذا الدستور الإلهي الكريم، وهذا ما عاشه- بحقّ- سلفنا الصالح حياةً حقيقية، (فالمرء لا يستطيع بمجرد فهْم ألفاظ القرآن وإدراك معاني جُمَلِه فقط أن يصل إلى إدراك التفاعل النفسي الذي ينطوي عليه رجال السلف الصالح عندما تعاملوا مع هذا الكتاب.. هناك أشواق، وتذوقات، وإشراقات، وومضات، ونفحات،

(1) فتح الباري: 9-45.

(2) آل عمران: 113.

(3) رواه مسلم، من حديث عمر بن الخطاب: ج1 ص515، برقم747.

وفتوحاتٌ لا يتوصّل إليها المرء بمعرفة الألفاظ والمعاني، بل لا بدّ له من أنْ يعيش نفسه في نور تلك التذوّقات والومضات، ولن يكون ذلك إلّا بالإيمان العميق النامي، والعمل الصالح والخلق الحسن..)[1]، (إنّ أصحاب النبيﷺ لم يكنْ أحدُهم يتلقّى القرآن ليستكثر به مِن زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهيّة محصولاً يملأ به جُعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليلقى أمرَ الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته. يتلقّى ذلك الأمر ليعمل به فوْر سماعه، كما يتلقّى الجندي في الميدان الأمرَ اليومي ليعملَ به فوْر تلقّيه، ومِن ثمّ لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة؛ لأنّه كان يحسّ أنه إنما يستكثر من واجباتٍ وتكاليفَ يجعلها على عاتقه..، وهذا الشعور- شعورُ التنفيذ- كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من الانتفاع، وآفاقًا من المعرفة، لم تكنْ لتفتح عليهم لو أنّهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطّلاع، وكان ييسّر لهم العمل، ويخفّف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم ويحوّله في نفوسهم وفي حياتهم إلى نهجٍ واقعي، وإلى ثقافة متحرّكة، لا تبقى داخل الأذهان، ولا في بطون الصحائف، إنّما يتحوّل آثارًا وأحداثًا تحوّل خطّ سير الحياة. إنّ هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلّا لمَن يقبل عليه بهذه الروح، روح المعرفة المنشئة للعمل، إنّه لم يجئ ليكون كتابَ متاع عقلي، ولا كتاب أدبٍ

---

(1) بحوث في أصول التفسير: 34، 35.

وفـنّ، ولا كتـاب قصـة وتاريـخ، وإنْ كان هـذا كلّـه مـن محتوياتـه، إنما جـاء ليكـون منهـاج حيـاة، منهاجًـا خالصًـا، وكان اللـه- سـبحانه- يأخذهـم بهـذا المنهـج مفرقًـا يتلـو بعضـه بعضًـا[1]، وهـذا التطبيـق العمـلي الصـادق، والطلـب الجـاد في تنفيـذ تعاليـم القـرآن في الحيـاة هـو مـا جعـل الجيـلَ الأول الرّائـد مـن أصحـاب النبـي r من أكـثر النـاس فهـمًا لهـذا الديـن، حتـى تجاوبـوا معـه وقـتَ نزولـه، فتلفّظـوا بألفاظـه، وألهمـوا أحكامـه، وتوقّعـوا توجيهـه وإرشـاداته، ومـا موقـف عمـر وإلهاماتـه منّـا ببعيـد، ليـس ذلـك فراسـة عمريـة فحسـب، ولا حدسًـا عربيًّـا ذكيًّـا فقـط، لكـن أيضًـا شـعور خالطـه توجيهـات القـرآن، فكانـت أوامـره ونواهيـه مصبحهـم وممسّـيهم، يتفكّـرون فيهـا في خلواتهـم، ويسـتذكرونها في جلواتهـم، وكـمْ مـرّة يخطـر ببـالي أنّ هـذا الجيـل الرائـد كان أنموذجًـا طبّـق عليـه ربّنـا- عـزّ وجـلّ- مـا ينبغـي أن يتحـلى بـه الجيـلُ الـذي يعمـر الحيـاة، وينـير الأرض، ويوقـظ خيرَهـا بمنهـاج اللـه- عـزّ وجـلّ-، فمَـن أراد أن يفهـمَ كـما فهمـوا، فليعـشْ كـما عاشـوا، وليعمـلْ بمـا عملـوا، فهـذه هـي الجـادّة، فأيـن السـالكون؟!.

(1) انظر معالم في الطريق: ص17و18، ط دار الشروق، ط العاشرة 1403هـ1983م، للشيخ سيد قطب.

# الخاتمة

## أسألُ الله حسنَها

وبعد، فهذه رحلةٌ ضرورية حول فهْم القرآن الكريم، بين القواعد التي تضبط العقلَ من الزيغ والهوى، وتعصمه من الوقوع في مهاوي الفكر ومحظورات التفسير، وبين المزالق التي إنْ عرفها المفسّر والقارئ ليتجنّبها نجا من شرك التفسيرات الخاطئة، والمخطئة. وقد دارت هذه الدراسة المبَسّطة حول عددٍ من القواعد، وركّزت على ضرورة الفهْم الصحيح للقرآن الذي هو الدستور الخالد للأمّة، وخلاصها، وسرّ نجاتها وعزّتها. وهذا الفهْم لا يقلّ أهمية عن عناية المسلمين بالشكل والأداء، بل إن الشكلَ والأداء خطوة إلى الفهْم والإدراك، كما أكّدت الدراسة على أن واقع المسلمين المرّ الذي يعيشونه سببٌ من أسبابه ضعفُ صِلتهم بهذا الكتاب الكريم، الذي أخرج أمّة من العدم، وأعزّها بعد ذلّ، ووحّدها بعد فرقة وشَتات، ولا يقصد بذلك ضعف صِلتهم به من ناحية حفظِه واستظهاره، أو إتقانه وأدائه، فهذا جانب قد أخذ حظّه الغامر، ونصيبَه الوافر، ولكنْ يقصد ناحية الوصول إلى الفهْم السليم، والإدراك القويم لمرامي هذا الكتاب الخالد.

ثـمّ عرضـت الدراسـة لبعـض العقبـات التـي تعرقـل عمليـة الفهْـم السـليم، وتناولـت بعـضَ المعينـات التـي تجعـل الإنسـان أقـدرَ عـلى فهْـم القـرآن، والتواصـل معـه، وكلّي أمـلٌ أن يلتفـت النـاس عامّـة، والمسـلمون خاصّـة إلى عقـد صلـة وثْقـى، وعـروة كـبرى بينهـم وبـين القـرآن حتـى يسـودوا الدنيـا، ويقـودوا العبـاد إلى طريـق اللـه عـزّ وجـل.

# توصيات:

هنـاك بعـضُ التوصيـات التـي نخـرج بهـا بعـد هـذه التّطوافـة السريعـة حـول هـذا الموضـوع، مـن أهمهـا:

1 أن يعنـى القائمـون عـلى دور التحفيـظ بجانـب الفهْـم كـما عنـوا بجانـب التلقـين والتحفيـظ، فـإنّ الحفـاظ عـلى نصـوص القـرآن ليـس غرضًـا لذاتـه، خاصّـة وقـد ضمـن اللـه بقـاءه.

2 أنْ يعنــى القائمــون عــلى مناهــج الجامعــات والمختصــون في مناهــج الدراســات القرآنيــة بجانــب الفهْــم القــرآني في برامجهــم وخطتهــم.

3 أنْ يعنــى العلـماء والكاتبـون بالجوانـب التـي تيـسر الفهْـم القـرآني وتعـين عليـه، ولقـد يـسّر اللـه القـرآن للذّكـر؛ فلنقدّمـه للنـاس غضًّـا سـهلًا كـما أراد اللـه.

4 العنايـة بالتفاسـير التـي تعـين عـلى تبسـيط المعنـى، ونشرهـا بـين المسـلمين مـا دامـت تمـضي عـلى منهـاج أهـل السـنة.

5 وضع برامج إذاعية وتلْفازية وفضائية تُعنى بتيسير الفهْم لعامة المسلمين.

6 العنايـة بتكويـن جيـلٍ رائـد يـربى عـلى أيـدي العلـماء العاملـين، يتـشرّب منهـم الفهْـمَ الصحيـح للقـرآن، وينـشر هـذا الفهْـم في النـاس بشـتى الوسـائل.

والله من وراء القصد،

**رمضان خميس الغريب**

**حائل- المملكة العربية السعودية**

**رمضان 1427هـ**

# فهرسُ المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ط: المكتبة الثقافية، بيروت لبنان، بدون.

- إحياء علوم الدين، للغزالي، ط: المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1424هـ 2004م.

- أسباب النزول للواحدي، ط: دار الكتب العلمية، ط أولى 1402هـ.

- أضواء البيان للشنقيطي، ط: دار الحديث القاهرة، ط 1426هـ 2000م.

- بحوث في أصول التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ط: المكتب الإسلامي، ط الأولى 1408هـ 1988م.

- البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي، ط: دار المعرفة بيروت لبنان، ط أولى1990،1410مـ ت/ د. يوسف المرعشلي وآخرون.

- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط: دار صعب، بيروت، ط أولى 1968م، ت/ فوزي عطوي.

- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط أولى، 1407هـ.

- التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي، ط: دار القاسم، ط أولى 1420 هـ.

- التحريـر والتنويـر، الأسـتاذ الإمـام محمـد الطاهـر بـن عاشـور، ط: دار سـحنون بـيروت، بـدون.

- تدبّر القرآن، د سليمان السنيدي ط: المنتدي بمكة، ط الثانية 1423هـ/ 2002م.

- تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1990م.

- تفسـير الصنعـاني، لعبـد الـرزاق بـن هـمام الصنعـاني، ط مكتبـة الرشـد، الريـاض، ط أولى،1410هــ ، ت/ مصطفى مسـلم.

- تيسـير الكريـم الرحمـن في تفسـير كلام المنـان، عبـد الرحمـن السـعدي، ط: مؤسسـة الرسالة، ط أولى، 1420هـ/ 2000م

- جامـع البيـان عـن تأويـل آي القـرآن، لابـن جريـر الطـبري، ط: دار الفكـر بـيروت 1405هـ.

- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط: دار إحياء التراث العربي، 1966م.

- دراسـات في علـوم القـرآن، لأسـتاذنا المرحـوم د. محمـد بكـر إسـماعيل طيـب اللـه ثـراه، ط: دار المنـار، ط أولى،1411هــ /1991م.

- روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.

- سنن النسائي لأحمد بن شعيب النسائي، ط: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية 1406 هـ 1986 م، ت/ عبد الفتاح أبو غدة، مذيلة بأحكام الألباني عليها.

- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار ابن كثير بيروت لبنان 1407 هـ، 1987م، ط الثانية، ت/ مصطفى البغا.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، ط: دار إحياء التراث العربي، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

- العجاب في بيان الأسباب، للإمام أحمد بن علي بن حجر، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط أولى 1997م، ت/ محمد عبد الحليم محمد الأنيس.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة، بيروت 1379هـ.

- الفوائد لابن القيم، ط: مكتبة مصطفى الباز، ط الثانية، 1425هـ 2004م.

- في ظلال القرآن، للأستاذ الشيخ سيد قطب، ط: الشروق، ط الشرعية التاسعة، 1400هـ / 1980م.

- قرى الضيف، لعبد الله بن أبي الدنيا، ط: أضواء السلف، الرياض، ط أولى1997م، ت/ عبد الله بن حمد المنصور.

- الكشاف، للإمام الزمخشري، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون.

- كيف نتعامل مع القرآن، لأستاذنا الشيخ محمد الغزالي، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط أولى، 1412هـ 1992م.

- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، 1407هـ / 2987م، بهامش تفسير الجلالين.

- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط، دار العلم للملايين، ط الرابعة،2000م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر بن محمد الموصلي، ط: المكتبة العصرية، بيروت 1995م.

- مجموع فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم الحراني، ط: دار الفكر،1400هـ / 1980م.

- مختصر مناهج القاصدين، لابن قدامة المقدسي.

- مدارج السالكين، لابن القيم، ط: دار الجيل، بدون.

- مدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، ط: دار الجيل 1412هـ 1992م.

- المرجعيــة العليــا في الإســلام للقــرآن والســنة، للدكتــور يوســف القرضــاوي، ط: مؤسســة الرســالة، ط أولى 1414هــ 1993م.

- المصنّـف في الأحاديـث والآثـار، لأبي بكـر عبـد اللـه بـن محمـد بـن أبي شـيبة الكـوفي، ط: مكتبـة الرشـد، الريـاض، ط أولى 1409هــ، ت/ كـمال يوسـف الحوت.

- المعجـم المفهـرس لألفـاظ القـرآن الكريـم، للشـيخ محمـد فـؤاد عبـد الباقـي، ط: دار الحديـث.

- معرفة القراء الكبار، للإمام الذهبي، ط دار الكتب العلمية، ط أولى 1417هـ.

- مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ط: دار الفكر، 1415هـ / 1995م.

- مفتــاح دار الســعادة ومنشــور ولايــة العلــم والإرادة، لمحمــد بــن أبي بكــر أيــوب الزرعــي، ط: دار الكتــب العلميــة، بــدون.

- مقدمــة في أصــول التفســير، لشــيخ الإســلام ابــن تيميــة، بتحقيــق إبراهيــم بــن محمــد، ط: دار المؤيــد، ط أولى، 1423/ 2002م.

- مناهل العرفان، للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط: الحلبي، بدون.

- الموافقات، للإمام الشاطبي.

- الوابـل الصيّـب، لابـن القيـم، ط: دار الكتـاب، بـيروت لبنـان، ط أولى 1425هـ 2004م.

- الوقـف والابتـداء وصلتهـما بالمعنـي في القـرآن الكريـم، رسـالة ماجسـتير، لزميلنـا الدكتـور عبـد الكريـم إبراهيـم عـوض صالـح، بـدون.

# فهرسُ الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | 13 |
| المبحث الأول: الفهْم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية | 21 |
| المبحث الثاني : قواعد الفهم | 26 |
| القاعدة الأولى : معرفة أسباب النزول | 27 |
| القاعدة الثانية : معرفة بيئة النزول | 32 |
| القاعدة الثالثة : معرفة الناسخ والمنسوخ | 34 |
| القاعدة الرابعة : معرفة المحكم والمتشابه | 37 |
| القاعدة الخامسة : معرفة الوقف والابتداء | 40 |
| القاعدة السادسة : معرفة عادات العرب وأخبارهم | 45 |
| القاعدة السابعة : معرفة علم أحوال البشر | 51 |
| القاعدة الثامنة : معرفة معهود الخطاب القرآني | 53 |
| القاعدة التاسعة : معرفة قواعد اللغة العربية | 56 |
| القاعدة العاشرة : معرفة موضوع القرآن الكريم ومقاصده الأساسية | 59 |
| القاعدة الحادية عشرة : فهم حقائق الألفاظ المفردة | 65 |
| المبحث الثالث : عقبات في طريق الفهم | 69 |
| 1 - عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب | 69 |
| 2 - النظرة الجزئية | 71 |
| 3 - الوقوف عند حسن التلاوة وبهاء الصوت | 78 |
| 4 - وضع النصوص في غير مواضعها | 85 |
| 5 - أن يكون همه آخر السورة | 88 |

6 - مرض القلب أو عدم خضوعه 90
7- التورع الواهم 94
8 - الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة 99
9 - الاشتغال بالمبهمات 103
10 - عدم استصحاب قواعد التفسير 103
المبحث الرابع : معينات الفهم 105
1 - المعايشة 105
2 - حضور القلب 112
3 - المدارسة 114
4 - صدق الطلب 116
5 - سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها 116
6 - استظهار القرآن وإدامة النظر فيه 119
7 - صلاة الليل 120
8 - التحلي بأخلاق القرآن قولاً وعملا 122
الخاتمة 125
فهرس المصادر والمراجع 129
فهرس الموضوعات 135